

منهج عبد الله بن عباس في التفسير

محمد السيد حسن محمد

إشراف الأستاذ الدكتور / عصام عبد المولى

أكاديمية تفسير للدراسات القرآنية

جمادي الأولى ١٤٤١هـ

يناير ٢٠٢٠م

اسم الكتاب : منهج عبد الله بن عباس في التفسير
المؤلف : محمد السيد حسن محمد
رقم الإيداع :
الرقم الدولي :



2+01068638377



2+012044605077

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية،
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء، والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

سِرِّ الدِّينِ مُحَمَّدٍ
وَسِرِّ مُحَمَّدٍ

شكرو تقدير

والشكر أوجب، ودالته ألزم، لأحيتي في أكاديمية تفسير المباركة، أن كانوا لنا عوناً، في صحبة كتاب الله تعالى، ربنا الرحمن، حتى كان من سببهم، أنا قد ازدتُ به، زينة الكواكب، في عنان السماء؛ لما قد تعلقْتُ بكتاب الله تعالى ربنا الرحمن قلوبنا، ولما قد أحببنا الكلام فيه، وله، وحوله، ظانين بالله تعالى ربنا الرحمن ظناً حسناً، أن يجمعنا بهم أجمعين، على سرر متقابلين، لا يمسنا فيها نصب؛ جزاء ما كانوا به عوناً لأمثالنا، الضعفاء، تعزيزاً، وشحذاً لهمم، واستدعاء لما أودع الله تعالى أفئدة عباده من فطرة سوية، على دين إمام الحنفاء، وأبي الأنبياء إبراهيم، أبي إسحاق، وإسماعيل عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

إِهْدَاءٌ

ومن حيث كان الإهداء سبباً لجلب مودة، ومن حيث كان سبيلاً لتأليف قلب، ومن حيث كان طريقاً لنيل محبة؛ للحديث (تهادوا تحابوا)^(١)، وكأن مروءة أن يهدي امرؤ لمن أحب، أو أسدى جميلاً، أو منح فضلاً. وكل ذلكم قد نالني منه الحظ الوفير، من آل، وزوج، وأبناء، بنين وبنات. ومنه كان توجيه إهداء عملي هذا إليهم رأيتُه واجباً؛ لأقوم به، وعساه أن يقضي بعضاً مما لهم أدين، ولعله أن يكتب لي في الموازين، أن أخذت بأسباب الرحمة والتأليف.

كما أن إهدائه لكل محب للقرآن، ومحب للإمام الخبر الترجمان، عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(١) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، والبيهقي (١٢٢٩٧). قال ابن العربي في ((عارضة الأحوذ)) (٧٧/٤): لم يصح. وقال ابن الملقن في ((البدر المنير)) (١١٧/٧): يُروى من طرق. وجَوَّدَ إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥٣/٢)، وحَسَّنَ إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (١٠٤٧/٣)، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (١٠٠/٦): اختلف فيه على ضمَام. وحَسَّنَ الحديث الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٩٤).

إقرار

وأقر أن نسخاً لهذه الدراسة من قلّمي، وأدرك أن ما جاء فيها من عملي، وأوقن أن ما صب فيها من صباة ذهني، وأشير أني نسخت من غيري، وأسندت له قوله؛ أمانة، وتجرداً، وتبركاً. ذلك أن العلم جميل، ومن جماله، سرده في نطاقه التاريخي؛ ليكون الناس كلهم، حلقة، متصلة، لا انقطاع فيها. فيه إثارة، لا أثر، ومنه تتحصل البركة!

ملخص البحث

تناولت في هذا البحث بيان منهج خبر الأمة، وترجمان القرآن، في تفسير كلام الله تعالى المنان. حيث كانت طريقته رضي الله تعالى عنه، أن يبدأ بذكر الآيات المبينة لمعنى الآية الكريمة، ثم يردف ذلك بحديثه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن لم يجد نصاً في القرآن الكريم، ثم رأيانه رضي الله تعالى يروح إلى صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، بمن فيهم هو نفسه؛ باعتباره صحابياً، ويذكر ما سمعوه من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، من هذا النص، أو ذاك. وإن لم يجد، رأيانه يستدل بكلام العرب وأشعارهم، حتى وجدناه بجرأ، مليئاً بالدرر، من كوامن اللغة، وأصدافها، وبأن ذلكم أكثر، حينما تعرضنا لذلك، في مسألتي نافع ابن الأزرق، وموقفه رضي الله تعالى عنه من مسائل غريب القرآن الكريم.

وبينت، أنه رضي الله تعالى عنه كانت له مناهجه المعروفة في الاستدلال عن أهل الكتاب، وما صح في ذلك عنه، وأنه كان مقلاً في ذلكم جانب، قياساً على غيره من صحبه الكرام. ورأيانه رضي الله تعالى قد جال بنا جولات تطبيقية عدة، فيما يخص مسائل النسخ، وأسباب النزول، وكذلك أفردت مبحثاً مستقلاً؛ لبيان قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكيف أمكن الخروج منها بسلس من القول، إن الإمام الخبر الترجمان، قد أخذ بها، واستند إليها، وإن لم يقل ذلك صراحة، بناء على أنهم كانوا لا يقعدون تقعيدنا، وإنما كانت هذه القواعد ممن جاء بعدهم.

ثم طاف بنا البحث إلى آفاق الأقوال، ومحكم البيان عن الإمام الخبر الترجمان، في مسألة (كفر دون كفر)، وبينت عدم صحة نسبة ذلكم قول إليه، رضي الله تعالى عنه.

وحطت رحال بحثنا حول بيان الطرق عنه رضي الله تعالى عنه، ليعرف غثها من سمينها، حتى لا ينشأ جيل لا يعرف سنداً لقول جاء عنه رضي الله تعالى عنه، صحيحاً كان، أو ضعيفاً، أو مكذوباً، ثم منه تكون الثمرة المرة، الحنظلة، أن هذا هو تفسير كلام الله تعالى، مأخوذاً عن الخبر الإمام الترجمان.

وسلكت نُحلات بجثنا سبل الكلام ذللاً إلى توضيح أن مطاعن قد كُذبت عليه رضي الله تعالى، فبينت ضحالتها، وكشفت سماجتها، وأنها لا تمثل إلا ﴿مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

وراح بنا البحث حاطا مطاياه عن كلامه رضي الله تعالى عنه في مسألتي نزول القرآن، وأول ما نزل منه، وآخر ما نزل، معرفة لفضل القرآن، ويسر الشريعة، ورفع الحرج عن الأمة؛ تيسيرا لها، ورفعاً لضرر قد يحيق بها، وهي رحمة الله تعالى ربنا الرحمن بعباده المساكين إلى عفوه ورضاه وتجاوزه وغفرانه سبحانه.

منهج ابن عباس

في تفسير القرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله تعالى، وأزيد حمدا؛ لما من أجله كنت شاهدا، أن الله تعالى أحد فرد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ❶ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ❷ ﴿[الإخلاص: ٣، ٤]. شاهدا بوحدانيتها، مقرا بألوهيتها، مؤمنا بربوبيتها، موقنا بأسمائه وصفاته، على الوجه الذي ارتضاه، وأنه تعالى ﴿الرَّحْمَنُ ❶ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ❷ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ❸ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ❹﴾ [الرحمن: ١-٤]. وكل من خلق الله تعالى وبراً ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ❶﴾ [الرعد: ١٣]. و ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ❶﴾ [الحشر: ٢٢]. وأثنى سبحانه على ذاته الكريمة فقال ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ❶﴾ [الفصل: ٧٠]. وهو ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ❶﴾ [الرعد: ٢]. وله الشناء و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ❶﴾ [الأنعام: ١]. والحمد لله أن قال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ❶﴾ [الأنبياء: ٣١]. وله الحمد أن قال ﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا ❶ رَفَعَ سَمَكَهَا ❷ فَسَوَّاهَا ❸ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ❹ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ❺ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ❻ وَالْجِبَالَ ❷ أَرْسَلَهَا ❸ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ❹﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]. و (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِينَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)(١).

(١) أخرجه مسلم: ٢١٤٠

وبعد، فقد عزمت أمري تلبية نداء الإخوان الأفاضل، والعلماء الأكابر، أن أشرف بالكتابة حول القرآن، وهو شرف لكل ذي قلم، وهو فخر لكل ذي لسان، أن اصطفاه الله تعالى؛ ليكتب حول كتابه المجيد، ولينثر عن قرآنه الحكيم.

هذا.. وقد حبرت بحثي، في ثوب قشيب، وأسلوب أديب، حول منهج الإمام الخبر الترجمان، في تفسير كلام الله تعالى ربنا الرحمن، من حيث إنه رضي الله تعالى عنه، قد قام بجهد وفير، وعمل كريم، لم يسبقه أحد في خصوص تفسير القرآن الكريم؛ لما قد حباه ربه تعالى، من علم كثير، ومن فضل وفير، أحاط السوار بالمعصم، حتى ترك لنا إرثا عظيما، منه ننهل، العلم الغزير، والفضل الكبير. وكان من سببه إلفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومصاحبته إياه زمنا، وإن كان في حساب الأزمان قصيرا، لكنها الهمة العالية، ولكنها التشمير، عن سواعد الجد؛ لنراه قد علمنا، كيف كان تفسير كلامه تعالى، من خلال الاستشهاد بالنص القرآني نفسه، معالجة لنص قرآني أخيه، أو من خلال قول سيد المرسلين، وحديث خاتم النبيين، نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أو نجده قد سار بنا السير الجميل، في آفاق اللغة، وكوامن الدرر، لما قد حباها الله تعالى ربنا وربها من فيض الكلام، وأدب اللسان، وبلاغة البيان، وغريب البيان، حتى وقد كانت بذلك سيدة لغات العالمين؛ لغناها، وحتى، وقد تسامت عليها أجمعها؛ لغناها.

هذا وقد أناخ بنا الإمام الخبر الترجمان الرواحل غير مرة، عند ناسخ ومنسوخ، وأسباب نزول، وأهل كتاب، وخاص، وعام، ومطلق، ومقيد، وما كان على البراءة الأصلية، واستشهاد بأشعار، واستدلال بأخبار، حتى خلنا أنفسنا بين جنبات حديقة غناء، بالعلم النافع، والعطاء المفيد، وحتى رأينا أن كان قليلا أن تعقد ندوات، أو أن تلقى محاضرات، أو أن تؤلف مؤلفات، حول منهجه رضي الله تعالى عنه، في تفسير كلام الله تعالى؛ لما قد منح من لسان سؤول، وقلب عقول، ولما قد توج بأنه فتى الكهول، فزانه علمه، ونصبه فقهه.

هذا وقد اقتفيت أثره، وألّفت سبيله حتى، وقفت بحمده تعالى على ما اعتبره سفيراً مختصراً في المنهج يكون زاداً لي، وعوناً لغيري أن نترسم خطاه، وأن نسير على هدايه. متنسمين العلم النافع؛ سبباً لعمل صالح، يرضاه الله تعالى. والله المستعان.

ولسوف أتناول منهجه رضي الله تعالى عنه، من خلال جوانب عديدة، رأيتها صلتها الوثيقة، بعلوم الكتاب المجيد، وبالتالي فإنها لا تنفك عراها عن مناهج المفسرين؛ باعتباره هو الآخر علماً من علوم القرآن الحكيم.

وجرياً وراء عرف سار في ذلك الشأن، بدأت بالكلام حول المعالم الأربعة، مما تعارف الناس عليه بمنهج ابن عباس في التفسير، ثم أردفت بما ألّفته لصيق الصلة بذلك منهج. مما سوف يجده قارئ كريم، أثناء تجواله، بين جنبات بحث أعدته، كبستان تخللته جداول، وأنهار، تسر الناظرين، كثيفة أزاهيره، يتنسم شذاها كل قارئ كريم، سعد الكلام بقراءته، وتندى الجبين بمطالعة.

حدود البحث

واقتصرت إبان الكلام حول منهج الإمام الخبر الترجمان، في تفسير كلام الله تعالى، ألا يكون إلا حوله. محاولاً ألا أخط برحالي على ما سواه؛ ضبطاً لمنهج قد ترسمته، وحداً لبحث قد سلّكته، حتى لا أروح بنفسي، أو قارئ كريم هنا مرة، وحتى لأذهب بي وبه إلى حيث هناك أخرى، فيتفرق شمل العمل، ولا يكاد يكون مترابطاً في جزئه، ولا يسمو سمواً في تناوله.

ورجوت الله تعالى القبول، ودعوته التوفيق والتسديد.

مشكلة البحث

ويمكن القول: إن البحث في منهج ابن عباس في التفسير، كمنهج مستقل، لم تُعني كتب قد ألّفت في هذا الشأن. اللهم إلا سطوراً متثرة بين أسطر محاضرات قد ألّقت، أو في ثنايا بحوث قد سطرت، وكانت تحمل عناوين آخر ليست مما نحن بصددده. ومنه تبدو

المشكلة. إذ لم أجد فيما بحث عنواناً لكتاب , أو وسماً لمرجع مستقل يكون زاداً لي ومعيناً ومسلماً. ومنه أيضاً كان اعتمادي على الله تعالى , واثقاً من عونه أن أخرج شيئاً متسماً بالجدّة , ومنشوراً به ما يعين على الملمة ما يمكن أن يكون منهجاً مستقلاً في إعداد منهج حول طريقة الإمام الحبر التّرجمان في تفسير كلام الله تعالى.

هذا ومما زاد الأمر إشكالاً أنك حين تقرأ لأحد كتب في منهج ابن عباس رضي الله تعالى عنه فإنك لا تكاد تجد سوى كلام مختصر حول المعالم الأربعة. وهي وإن كانت تمثل معالم المنهج بحق إلا أن الاقتصار عليها وحدها غير كاف في إبراز ما للحبر الإمام التّرجمان من رصيد واسع كريم نبين منه منهجه في تفسير كلام الله تعالى القرآن الكريم.

ومنه كانت التّبعة أن أفرد ببيان، ومنه كان التكليف أن أخرج بمجديد، لا يعز على باحث، كانت نيته استخراج مكنونات المعارف، وأمست طريقته، إعراضاً عما يكتنف ذلك من مخاوف، نيلاً لفضل العلوم، واحتساباً لأجرها.

أهداف البحث

هذا، وقد استفاضت أهداف، وقد تبينت أصداف. لما خصصتها للبحث في هذا الشأن كانت: تحديد منهج الإمام الحبر التّرجمان، في تفسير كلام الله تعالى ليكون زاداً من حلقات متصلة على مدار التاريخ الضارب في القدم؛ لاكتمال سلسلة البحث والاهتمام والدراسة، حول تخصيص منهج للتفسير. ومن بيت النبوة، يكون علماً على الأعلام، لما سوف تكون له من قوة، ولما سوف يلحقه من قبول.

بيان أن منهجه رضي الله تعالى عنه لم يكن مقتصرأً حول المعالم الأربعة كما قد تعارف عليه الإخوان، ولما سار على ذلكم نهج باحثون كرام مهرة.

إزالة لبس عن طرق الرواية عنه رضي الله تعالى عنه لبيان الصحيح منها والفاسد، حتى لا يقع أحدنا فيما لا تحمد عقباه، اعتماداً على ما للحبر التّرجمان من صيت، واتكاءً على ماله من قبول. فيفهم كلام الله تعالى على غير مراده. وذلكم من تمام حفظ الكتاب لفظاً ومعنى أن سخر له حفظته، وأن وفق قوما لكتابته، وأن مهد سبيلاً لجمهرة

مفسرين، وأن وفق قوما لدراسة كتابه المستبين. وتيكم أسباب أمرت شريعتنا باتخاذها، وأكدت ديانتنا على اعتمادها؛ لأنه كان من عمادها أن جعل لكل شيء سبباً.

بيان الاهتمام بالقرآن المجيد، ولفت الأنظار إلى ما فيه من درر، كانت لصيقة الصلة بإظهار معانيه، وكانت ناصعة في اكتمال مبانيه. حتى بدا مقبولا، وحتى صار ميسورا، من تيسير الله تعالى له، وحين قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وذلكم هو أوجب الواجبات، في حق كتاب ربنا الرحمن سبحانه، أن سخر من عباده، من يفهم عباده الكتاب؛ كيما يكون سائغاً مقبولاً، وكيما يتفق أن يكون سهلاً ميسوراً. فيكون إعماله ميسوراً، في الكون، وفي الحياة، وفي الضمير، وفي الواقع، وفي التصورات، وفي القيم والموازن. لترقى به أمة قامت بالحق، وبه يعدلون. لا أن يكون طلاس ممهورة بتواقيع الجهالة، كما هو الشأن لدى كثير ممن أوتوا الكتاب فحرفوه، وعن قصد غيره، وبسوء طوية بدلوه، والله المستعان.

أهمية البحث

وتبدو أهمية البحث في الكلام عن منهج ابن عباس في تفسير كلام الله تعالى، من أنه متعلق بخير الكلام، وهو كلامه تعالى، ثم ومن حيث إنه الصحابي الناشئ في بيت النبوة، ومنه يكون لقوله قيمة معتبرة، عند كل دارس ومن ثم تكون لأقواله مواضع الصدارة، على غيره، على الأقل لأنه صحابي، ومن بيت النبوة قد نشأ، وفي كنفها قد ترعرع، ومن فيض علمها قد تشرب.

ومنه ستكون ثقة لا نظير لها في الأخذ عنه، والنقل إلى غيره.

كما وأنه يمكن القول: إن ثقة بهذا المستوى كان ولازال قد تربع بها رضي الله تعالى عنه، كانت كفيلة بالدس عنه تزلفاً، أو تحبيماً، للكتاب، أو تفهيماً لآيه الكريمات، بحسن نية، أو سوئها، ليس ذلكم المقصد، وبقدر ما إن ذلكم قد حصل، ولزم كشف النقاب عنه، في مسائل الوضع عليهن في تفسير القرآن، أو السنة عموماً.

عملي في هذا البحث

ومنه كانت التبعة عظيمة، وعليه كان التكلان على الله ربي الرحمن أعظم. مستمداً منه عونه، وراجياً فضله أن يرزقني حسن بيان، وأن يلهمني رشد قول، وأنا أتناول كلاماً بتكليف عن ذلكم الأشم حبر الأمة وترجمان القرآن. إذ والذي برأ النسمة، إنه لتأخذ الإنسان رعدة، أيما هي رعدة، حين يجد نفسه مضطراً للكلام، حول هذه الأمثال، وتيكم الجبال الرواسخ، وإذ من أنا، وإذ من غيري، ليقول قولاً عمن دعا له نبي الأمة، وإمام الملحمة، بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)^(١).

وعلى كل حال، فقد كشفت النقاب عن لوحة، كلامها من عسل مصفى، ورحيقها، قول معتبر، لما له من أهمية في تبيان منهج الإمام الحبر الترجمان، في تفسير القرآن. وقد: نسخت الآيات القرآنية، وبينت سورتها، ورقم الآية فيها.

وخرجت كل حديث ورد في كلامي عن رسول الله صلى الله تعالى وآله وسلم. حاولت قدر وسعي أن أكتفي بما صح سنده عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

خرجت كل قول جاء في هذا البحث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه.

أبنت كل قول لصاحبه تبركاً بذكر أفضالهم. وإلا فمثلي ومثلهم كحلقة ألقيت في فلاة علمهم. فمنهم أستقي، وبهم أستنير، ولهم أثراً أقتني. إذ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، وحسي ذلك، وكفاه حسباً، والله المستعان!

خرجت من هذه الأيقونة بقول صريح، واستدللت بها برأي فصيح، أن عظمة القرآن في الكلام لا تقارن؛ لأن نوره كمشكاة فيها مصباح، وأن ما كان له من نور فإنما لأنه القرآن!، وإنما لأن قوماً كراماً قد أوقفونا على إعجازه، وأن جهابذة أفضالا قد أشربونا

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ٢٠٥/١. خلاصة حكم المحدث: موصول وله وجه آخر مرسل.

معانيه العظام، ومبانيه الكرام، ومآلاته السامية، وقممه السامقة، حتى ولقد استطال على غيره من كلام، وحتى وقد تفرد عن كل ما سواه من نثر أو بيان، والله المستعان.

هذا، ولا يفوتني ذكر أنني إذا أشرت إلى قول أو نقل غير مرقمة صفحته من مصدره فإنما كان ذلك لأنني جئت به من أيقونة البحث العنكبوتية وكثير منها لا يرقم، أو هكذا بلغ علمي المحدود، ووسعها الممدود.

وهذا أيضاً، وليس يقول كريم أكرمتم بقراءته لكلامي أنني قد اعتسفت الكلام اعتسافاً؛ لأخرج بمنهج جديد عن الإمام الخبر الترجمان، في تفسيره لكلام الله تعالى ربنا الرحمن. وذلكم لأنني قد بينت أنها مسائل تتعلق بعلوم القرآن، وليست مناهج المفسرين إلا علماً منها. ثم إننا لمقتضيات البحث والعلم والتقعيد سار بنا العلم سيره لنقعد ونؤصل، وما كانت هذه طريقة الأولين، ومنه فلا أقل من أن يقال في كلامي إنه نحو على مانحاه الناس في تأصيل تميز بالجدّة في ذكر منهجه رضي الله تعالى عنه في تفسير كلام الله سبحانه القرآن العظيم والذكر المبين.

ومنه ألتمس إباحة لناظر كريم فيما نحوته، وليعذرني مطلع جليل فيما نهجته.

مصادر البحث

ومصادره عديدة عدة ما تميز به إمامنا الخبر الترجمان. ذلك لأن محبي الكتاب كُثُر، وإحصاؤهم نُدُر، ومنه كان كل يستلهم من المعين الأول بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صحب كرام، وتفرد منهم إمامنا، وكان له قصب سبق لما قد نشرته أثناء الحديث، ولما قد أفردته إبان الكلام، ولما سيجد قارئ كريم منه أوفر الحظ وأعظم النصيب.

وسيجد مطلع حصيف أنني قد أكثرت من مصادر بحثي تأملاً وفحصاً ونسخاً وتعليقاً وإفادة من أمثال أمهات التفاسير كتفسير الطبري رحمه الله تعالى، والقرطبي، وابن كثير، والدر المنثور. وأصول كتب السنة، وتقدمهم إماما الحديث البخاري ومسلم رحم الله

الجميع. والنسائي وأحمد وغيرهم مما حفلت به الدراسة، وشمرت عن ساعدي الجذ بحثاً عن قول للإمام هنا، وجرياً وراء خبر عنه هناك.

والله تعالى سائله أن يجزيهم جميعاً خير الجزاء وعاطره. كما وأني أسأله تعالى اللحاق بهم في تحصيل علم نافع يكون سائقاً لي إلى الجنان - سبياً - يوم أن علم الله تعالى أنه له وحده، وليس لأحد من العبيد فيه نصيب، والله المستعان وبه الثقة وعليه التكلان.

خطة البحث

ولسوف تكون هذه الأطروحة مطروحة في ثلاثة فصول. الأول منها في الكلام على إطلالة عن الخبر الإمام وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وسوف أكرس الفصل الثاني بمشيئته تعالى للكلام حول منهجه في تفسير القرآن الكريم والذكر الحكيم، ثم يكون الفصل الثالث والأخير مخصصاً للكلام حول تطبيقات رأيها لازمة لزوم الشيء لبعضه، ولا يكتمل به، ليهبه زيتته، ويمنحه بهجته.

ثم أختتم الدراسة بما قد تعورف عليه من ذكر نتائجه، وهو بمثابة قطف الثمر، وإذا قد حان وقته، وحل زمانه؛ لتكون بمثابة خلاصة كالمسك، من خلاصات الأطياب، وكالرحيق عسلاً، يعالجه النحل في خليته.

ثم يكون وقت ذكر الفهارس قد أتى، وبه يكون بحثنا في أبهته قد بدا!

والله تعالى هو الهادي، والموفق، والمسدد، وأستلهم عونته، وأستمطر رشده.

الدراسات السابقة

في الواقع، وكما أشرت آنفاً، لربما لا يوجد كتاب يحكي لنا منهج الإمام الخبر الإمام في التفسير، على وجه مستقل - فيما بحثت - بحيث يمكن القول إنه إنما سبك لذلك هدف وحسب!

بيد أنه كتبت كتابات كثيرة، متناثرة هنا وهناك، وتكاد جميعها تجمع على اختصار المنهج في إشارات مقتضبة حول معالم منهجه رضي الله تعالى عنه في تفسير كلام الله تعالى.

هذا وقد وقع أمام عيني بحث مهور ب: منهج ابن عباس وأثره في الاتجاهات اللغوية والبلاغية في التفسير، ويقع في ثمان وخمسين صفحة، لمؤلفه: عمر يوسف حمزة. والناظر في هذا البحث لا يكاد يجد ذكرا للإمام الخبر الترجمان كمنهج مستقل في تفسير القرآن العظيم. اللهم إلا أنه استهله بتعريف عنه رضي الله تعالى عنه، ثم راح يجول عند غيره بعد ذلك أثناء الكلام حول الاتجاهات اللغوية والأدبية في تفسير كلامه تعالى^(١)!

ومنه كتاب (تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة)^(٢). وهو كتاب جيد في مجموعه. غير أنه سلك فيه على ما عنون له، حدا لبحثه، من ذكر ما جاء عن الإمام الخبر الترجمان، تفسيراً لكلام الله تعالى. ومنه لم يكن القصد إذن بيان منهجه رضي الله تعالى عنه في التفسير، بقدر ما كان إبرازاً لما جاء عنه في تفسير كلام الله تعالى، كما قد فاض به الكتاب الكريم. وإن كان قد ألمح هو الآخر إلماحة إلى منهجه في التفسير تحت عنوان (مصادر تفسير ابن عباس) وكانت مختصرة بينة في آن، لكنها لم تف بمقصود، لخروجها عما رسم الكتاب من أجله، ولله دره، وفقه الله ورعاه.

ومنه محاضرة لفضيلة الشيخ الدكتور صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى ممهورة بعنوان (مناهج المفسرين). حيث قد ألمح إلماحة إلى معالم المنهج عند الإمام الخبر الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما واكتفي بذلك.

وأدفع عنه أو غيره نقصاً يعتورهم في البيان. فإنما هم آل علم وبرهان. بيد أنه ربما كانت إشاراتهم تلك كافية في عقدتهم لبيان منهجه رضي الله تعالى عنه في التفسير، أو قل إن شئت: هي إلماحة عنه وعن غيره فلا اختصاص له ببيان، والله المستعان.

(١) منهج ابن عباس وأثره في الاتجاهات اللغوية والبلاغية في التفسير لمؤلفه: عمر يوسف حمزة دار النشر: مجلة الشريعة

والدراسات الإسلامية تاريخ النشر: ٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ بلد النشر: الكويت رقم الطبعة: ٥٢

(٢) تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة) للدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

وهكذا كافة ما وقعت عليه عيناى مع كثرتها أثناء تجوالى؁ والبحث عن منهج الصحابى الكرىم ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حتى صارت سيرة ما قطعت من أميال حول ذلكم المضمار وحسب.

ومنه كان عزمى أن أطوف حول الفيافى؁ وأن أجول داخل أسوار العلوم لأشتق منها ما وجدته ملائماً أن يكون ضمن منهجه رضى الله تعالى؛ لأخرج بأيقونة حسبته لؤلؤة علم جديد؁ بادية فى ثوبها البهى بهاء من أكتب عنه لما عليه علمه؁ ولما عرفناه عن خلقه. فرد بيان قاطع البرهان أقطع الفيافى لأجول وقد رجعت بسمان القول وعظيم البيان حول منهجه رضى الله تعالى ليكون أيقونة متكاملة فيما أدين الله تعالى به.

وأسميتها (منهج ابن عباس فى التفسير) وكانت جد مقتصرة عليه؁ راجع فيها جل قول إليه. مفصلة كأنها بستان قد كان بادياً مزداناً لما فيه من غناء الورود؁ وقد كان بهيا لما حففناه من زكيها؁ ولما قد نالنا من نديها؁ ولما قد أحطناه من شجي الزهور؁ والله الهادي والموفق والمسدد والواهب لكل علم نافع سديد؁ ولكل بيان صالح مجيد.

منهج البحث

ولقد كانت دراستى لذلك منهج كرىم لصحابى كرىم نسبته؁ وكرم علمه من المنهج التحليلى الوصفى القائم على استقراء ما جاء عنه رضى الله تعالى فى شأن بيان منهجه فى تفسير القرآن الكرىم.

ولست مدعياً قصب سبق لذلك عمل؁ ولا أدعى تفرداً فى تناول. إن هو إلا التكليف؁ وإن هو إلا الفخر والاعتزاز أن أنهل من هذا علماً؁ وإن هو إلا الشعور بالأمن يوم أن يرزق الله تعالى عبدا درساً لكتابه. ونسأله تعالى أن يكون ذلك من حسن العلامات أن يستعملنا الله تعالى ربنا للخير وخاصته؛ وهو كتبه المجيد؁ وقرآنه الحكيم.

ومنه كان العمل البشرى مدعاة لنقص؁ وكل عمل آدمى لزمه ثلم. ومنه كان العلم الإنسانى محفوفاً بزلل؁ بيد أنى أجد مساعاً لعفو من الله تعالى أنى بذلت جهداً هو

سبحانه الأحد به أعلم؛ لأخرج بهذا الطرح راجياً منه تعالى أن يجعله من مُثَقَّلَات موازيني يوم تُطَايَر الصحف، وتخف موازين، وتثقل أخرى، والله المستعان.

كما وأني أرجو قارئاً كريماً أن يخفف النوء عني، وأن يلتمس عذراً لمثلي ضعيف أحب الكتاب، وحسبه أنني طفت به رحلة هنا، وسلكت به سبيلاً إلى هناك في رحاب القرآن العظيم والذكر الحكيم.

ومنه فليحللني كل قارئ مما رآه عيباً لا أخرج فيه عن نطاق آدميتي، ولا أكاد أحميد به عن سبيل بشريتي، ذلك لأن كل ابن آدم خطاء وأستغفر الله تعالى من ذنب قد اقترفته، أو من قول قد قلته، لا يعول به لمزجة البضاعة، ويؤاخذ به لقلة الصناعة، أو لا يرقى إلى مصاف أقوال الجهابذة الكرام، وحسبهم أنني ضيف على مائدة علمهم، وكان لي به حق الإكرام، وهم له أهل، وهم به قمم.

الفصل الأول

إطلالة نهرية بالحبر الإمام و ترجمان القرآن

عبد الله بن عباس

في الصحيحين، عن ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول: "اللهم لك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن"^(١). الحديث.

وكانت تكفي مثل هذه العبارة ثناء عليه وإطراء له. لولا ما قام به في خدمة كتاب الله تعالى ربنا الرحمن - القرآن الكريم - مفسراً لمعانيه ومبيناً لمبانيه ومظهراً لمراميها. وكان من حق ذلكم وواجبه تناول جوانب عدة من حياته كانت سبباً لإنسان ذلكم مجد وثناء.

وبلوغ منزلة بلغها مثل الإمام الحبر والحبر الترجمان ليست لتؤخذ بمعزل عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم له كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الخلاء، فوضعت له وضوءاً قال: من وضع هذا؟ فأخبر فقال: اللهم فقهه في الدين)^(٢).

ذلك أن فضل الدعاء وبركته هو من جنس ما كان علماً على رضا العبد عن مولاه، فضلاً على كونه علماً على رضا الله عن عبده، خصوصاً إذا كان نبياً.

ومنه توزيع المهام. كما قال صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه:

(١) صحيح البخاري: ٧٤٩

(٢) صحيح البخاري: ١٤٣

أرأف أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي ، وأعلمهم بالحلّال والحرام معاذ بن جبل ، ألا وإن لكل أمة أميناً ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح^(١).

ومنها نفي أسلوباً جميلاً في تربية النشء. ذلك أنه استدعاء لما في مكنونات النفس من خير جبلت عليه أصلاً. والموفق من وفق لإحسان طرق بابهِ والحكيم من رزق الحكمة فأحسن التوجيه. وليس إلا رسول الله لذلك أهل، فكان من نتاجه ابن عباس ومن كان على دربه من أولاء عصابة مؤمنة صدقت ما عاهدت الله عليه.

وكما أنف من قول رسول الله: اللهم علمه الكتاب^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْخَلَاءَ فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: مَنْ وَضَعَ هَذَا، فَأَخْبَرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ^(٣).

مولده ونشأته

وُلِدَ رضي الله عنه يشعب بن هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة، ورزق جمالاً وسمتاً حسناً. كما أنه كان طويل القامة حصيماً عاقلاً أياً كاملاً في أخلاقه سامياً في آدابه. ورغم قصر صحبته للرسول (ثلاثون شهراً) إلا أنها كانت مباركة أنبأك عن بركتها تيكّم الأسفار، وهالة الأخبار، وغزير التفاسير، وعظيم التأويل. مما انفرد به رضي الله تعالى عنه، وبما مكن لأمثالنا أن نفهم توجيه كلام ربنا الرحمن سبحانه.

فرغم قصر مدة الصحبة إلا أنه تمكن من تضلع القرآن والسنة مما رزقه موهبة كان خيرها عائداً إلى كل مسلم. إذ كانت له مفرداته اللصيقة به في القرآن تفسيراً لم يسبق

(١) صحيح الجامع: ٨٦٨

(٢) صحيح البخاري: ٧٥

(٣) صحيح مسلم: ٢٤٧٧

إليه. كما قال مجاهد فيما روى عن الفضل بن ميمون، قال: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة^(١).

وهو أبو العباس عبدالله ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو والد الخلفاء العباسيين، وهو أحد إخوة عشرة ذكور للعباس من أم الفضل، وهو آخرهم مولدًا، وقد مات كل واحد منهم في بلد بعيد من الآخر.

مناقبه وعلمه

عن ابن عباس، قال: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير "، فقال: واعجبا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم، قال: " فتركت ذاك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان يبلغني الحديث عن الرجل فأتي بابيه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابيه يسفني الريح علي من التراب فيخرج فيراني "، فيقول: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فأتيك؟ فأقول: " لا، أنا أحق أن آتيك " قال: فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رأيته وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فيقول: " هذا الفتى كان أعقل مني "^(٢). وَكَبَتْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ^(٣).

وفي رواية أخرى: أَنَّهُ ثَلَاثًا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٩٨]، قال: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ^(٤).

(١) حلية الأولياء ٣ / ٢٧٩ - ٢٨٠، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٤٥٠

(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم: ٣٠٤

(٣) صحيح البخاري: ٤٥٨٧

(٤) صحيح البخاري: ٤٥٨٨

وما أجمل وصفا له رضي الله تعالى عنه في كلام وجيز ومعنى كريم حيث: (قيل لابن عباس - رضي الله عنهما -: بِمَ أدركتَ العلم؟ قال: بِلِسَانٍ سَوَّوْلٍ، وَقَلْبٍ عَقُولٍ، وَفُؤَادٍ غَيْرِ مَلُولٍ، وَكَفٍّ بَذُولٍ، وَبَدَنٍ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ صَبُورٍ^(١)).

ومنه بلغ تيكم منزلة وبه صار عِلْمًا. ولذا كان صلى الله عليه وسلم يجلسه مع كبار الصحابة رضي الله عنهم ويقدمه في القول عن كثير منهم حتى أغبطه بعضهم إعجابا به وسرورا

وحيثية إجلال له إذ: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدني ابن عباس، فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناء مثله، فقال: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر، ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ [النصر: ١]. فقال: أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه إياه فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم^(٢).

وتلك حصافة شاب هو فتى الكهول وذلكم ذكاء ذي اللسان السؤول وتلكم فطنة صاحب القلب العقول.

ومنه أفيد تقوى له تعالى تكون سببا لرزق وفير، وفضل منه تعالى كثير يعم نفعه، ويخص صاحبه بذكره كما قد شاع ذكر أمثال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وذلكم أيضاً متضمن الأرزاق كلها. من علم وما سواه.

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كنت قاعدا عند عمر إذ جاءه كتاب: أن أهل الكوفة قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا فكبر، فقلت: اختلفوا. قال: من أي شيء عرفت؟ قال: قرأت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآيتين فإذا فعلوا ذلك لم يصبر صاحب القرآن، ثم قرأت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ۝﴾ [البقرة: ٢٠٦] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] قال: صدقت والذي نفسي بيده^(٣).

(١) المستدرک علی الصحیحین، الحاکم: ٦٢١ / ٣

(٢) صحیح البخاری: ٤٤٣٠

(٣) الدر المنثور فی التاویل بالمأثور، السيوطي: ١ / ٥٧٨

وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ولزمه، وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال، والأفعال، والأحوال، وأخذ عن الصحابة علماً عظيماً مع الفهم الثاقب، والبلاغة، والفصاحة، والجمال والملاحة، والأصالة، والبيان^(١).

وحسن خلق شهد به لنفسه ومآثر فضل نعت بها شخصه النبيل. حيث: رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعٌ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَذْرِي مَا هِيَ ؛ الْأَوَّاهُ، وَالْحَنَّانُ، وَالرَّقِيمُ، وَالْغَسِيلُ، وَكُلُّ الْقُرْآنِ أَعْلَمُهُ إِلَّا هَذِهِ الْأَرْبَعُ^(٢).

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ وَغَيْرُهُ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ ؛ فَإِنْ كَانَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ وَهِيَ فِي السُّنَّةِ قَالَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْلُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَجَدَهَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ قَالَ بِهَا، وَإِلَّا اجْتَهِدَ رَأْيَهُ^(٣).

وعن عبد الله بن بريدة، قال: شتم رجل ابن عباس رحمة الله عليه فقال: « أما إنك تشتمني وفي ثلاث خلال: إني لأسمع بالحكم من حكام المسلمين يعدل فأفرح، وعلي ألا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث يصيب من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي به من سائمة، وإني لآتي على الآية من كتاب الله فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم^(٤)».

صدعه بالحق

وله صولات حق عجيبة، في هذا الشأن. فعن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق قومًا؛ فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ٨ / ٣٢٦

(٢) المرجع السابق: ٦٩٩٤

(٣) المرجع السابق: ٦٩٩٥

(٤) فضائل القرآن للقاسم بن سلام: ١ / ٨٣

تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من بدل دينه فاقتلوه^(١).

ومنه أفيد قولاً للحق وجوباً، وإعلاناً به فرضاً في مواجهة كل باطل. إذ إنه يعلو ولا يعلو عليه، وعليه قامت السموات والأرض، وبه يكون الفوز، والفلاح، والنصر، والتمكين. وما هزمت جيوشنا، وما احتلت ديارنا، إلا يوم أن غاب الحق، واندرست معالمه، حتى اختلط بالباطل أحيان كثيرة. فصار ضباباً باهتاً أمام فئام من الناس.

وعن مجاهد رضي الله عنه قال: كتب هرقل إلى معاوية يسأله عن ثلاثة أشياء: أي مكان إذا صليت فيه ظننت أنك لم تصل إلى قبلة؟ وأي مكان طلعت فيه الشمس مرة لم تطلع فيه قبل ولا بعد؟ وعن السواد الذي في القمر؟ فسأل ابن عباس رضي الله عنهما؟ فكتب إليه أما المكان الأول: فهو ظهر الكعبة. وأما الثاني: فالبحر حين فرقه الله لموسى عليه السلام. وأما السواد الذي في القمر: فهو المحو^(٢).

ومنه أفيد سعة علم، وفيض عطاء، وهبهما الله إياه. ليبقى دين الله تعالى، له حفظته، برهاناً عليه، ودليلاً إليه، وليبقى كتابه القرآن أيضاً محفوظاً بحفظه تعالى، وقائماً بأسباب، من أمثاله رضي الله تعالى عنه، وكذا صحب كرام، أبلوا البلاء الحسن الجميل، حتى سادوا بهذا الدين، وحتى قادوا بالقرآن العظيم، وأفيد أيضاً الحذو مثلهم.

إمارته

وتولى إمارة البصرة. فقد ورد صعصعة بن صوحان على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه من البصرة، فسأله عن عبد الله بن عباس، وكان على خلافته بها، فقال صعصعة: يا أمير المؤمنين، إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث: آخذ بقلوب الرجال إذا

(١) صحيح البخاري: ٣٠١٧

(٢) تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ السيوطي (ت ٩١١ هـ): عند تفسير الآية (١٤) من سورة الإسراء

حدث، ويحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر الأمرين إذا خولف. تارك للمراء، وتارك لمقاربة اللئيم، وتارك لما يعتذر منه^(١).

وتولى إمارة الحج كما قال: الأعمش حدثنا أبو وائل قال خطبنا ابن عباس وهو أمير على الموسم فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا لو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت^(٢).

ومنها أفيد صلاح الترجمان وشجاعة الإمام ابن عباس ومثابرته ودينونته لله تعالى. مما يشي بتضلعه من تربية الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم له. ومن ثم كان على هذا الطراز الفريد من نوعه مهاجرا مستضعفا إماما. ومنه أيضا نفيد توجيهه لتفسير القرآن الكريم بتنزيل الآية على معناها سبقا وتفردا.

هجرته

ومن هجرته أنه هاجر مع أبيه قبل الفتح فلقيا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجحفة. ومن جهاده أنه شهد الفتح، وحينئذ، والطائف، عام ثمان، وقيل: كان في سنة تسع وحجة الوداع سنة عشر.

ورعه وزهده

ومن ورعه قوله عن نفسه: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. قال طاووس: ما رأيت أحدا أشد تعظيما لحرمان الله من ابن عباسك^(٣).

ومنه أفيد لزوم ورع وعلم وتقوى؛ ليخرج علم من فؤاد صاحبه إلى لب المستقبل.

(١) مختصر تاريخ دمشق: ١٢ / ٣١٣

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي عند كلامه عن عبد الله بن عباس

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٤٢

وقال مجاهد: كان ابن عباس يسمى البحر؛ لكثرة علمه^(١).

وقال الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ جُبَيْرٍ، سَمِعْتُ ابْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: ابْنُ عَبَّاسٍ أَعْلَمُ النَّاسِ. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزُّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَدْ فَاتَ النَّاسَ بِخَصَالٍ ؛ بَعْلَمَ مَا سَبَقَهُ، وَفَقَهُ فِيمَا احتِيجَ إِلَيْهِ مِنْ رَأْيِهِ، وَحِلْمٍ وَكَسْبٍ وَتَأْيِيلٍ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَعْلَمَ بِمَا سَبَقَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ، وَلَا بِقَضَاءِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهُ فِي رَأْيٍ مِنْهُ، وَلَا أَعْلَمَ بِشَعْرِ وَلَا عَرِيَّةٍ، وَلَا بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَلَا بِحِسَابٍ، وَلَا بِفَرِيضَةٍ مِنْهُ، وَلَا أَعْلَمَ بِمَا مَضَى، وَلَا أَثْبَتَ رَأْيًا فِيمَا احتِيجَ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَلَقَدْ كَانَ يَجْلِسُ يَوْمًا مَا يَذْكُرُ فِيهِ إِلَّا الْفَقْهَ، وَيَوْمًا التَّأْوِيلَ، وَيَوْمًا الْمَعَاذِي، وَيَوْمًا الشُّعْرَ، وَيَوْمًا أَيَّامَ الْعَرَبِ، وَمَا رَأَيْتُ عَالِمًا قَطُّ جَلَسَ إِلَيْهِ إِلَّا خَضَعَ لَهُ، وَمَا رَأَيْتُ سَائِلًا قَطُّ سَأَلَهُ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ عِلْمًا. قَالَ: وَرَبِّمَا حَفِظْتُ الْقَصِيدَةَ مِنْ فِيهِ يَنْشِدُهَا ثَلَاثِينَ بَيْتًا. وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ قَطُّ. وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا رَأَيْتُ مَجْلِسًا أَكْرَمَ مِنْ مَجْلِسِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَكْثَرَ فَقْهًا، وَلَا أَعْظَمَ هَيْئَةً ؛ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ يَسْأَلُونَهُ، وَأَصْحَابُ الْعَرِيَّةِ يَسْأَلُونَهُ، وَأَصْحَابُ الشُّعْرِ عَنْهُ يَسْأَلُونَهُ، فَكُلُّهُمْ يَصْدُرُ فِي وَادٍ وَاسِعٍ^(٢).

من وصاياه

وجاء إليه رجل يقال له: جندب، فقال له: أوصني. فقال: أوصيك بتوحيد الله والعمل له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن كل خير آتية أنت بعد ذلك منك مقبول، وإلى الله مرفوع، يا جندب إنك لن تزدد من موتك إلا قرباً، فصلِّ صلاة مودع. وأصبح في الدنيا كأنك غريب مسافر، فإنك من أهل القبور، وابك على ذنبك وتب من خطيئتك، ولتكن الدنيا عليك أهون من شسع نعلك، فكأن قد فارقتها وصرت إلى عدل الله، ولن تنتفع بما خلفت، ولن ينفعك إلا عملك.

(١) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية: ١٩ / ١

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٨ / ٣٣٢

وقال بعضهم: أوصى ابن عباس بكلمات خير من الخيل الدهم.

قال: لا تكلمن فيما لا يعينك حتى ترى له موضعاً، ولا تمار سفيها ولا حليماً، فإن الحليم يغلبك، والسفيه يزدريك، ولا تذكرن أخاك إذا توارى عنك إلا بمثل الذي تحب أن يتكلم فيك إذا تواريت عنه، واعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالإحسان مأخوذ بالإجرام. فقال رجل عنده: يا ابن عباس! هذا خير من عشرة آلاف. فقال ابن عباس: كلمة منه خير من عشرة آلاف.

وقال ابن عباس: تمام المعروف تعجيله وتصغيره وستره - يعني: أن تعجل العطية للمعطي - وأن تصغر في عين المعطي - وأن تسترها عن الناس فلا تظهرها! فإن في إظهارها فتح باب الرياء وكسر قلب المعطي، واستحياءه من الناس.

وقال أيضاً: أعز الناس على جليس لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت^(١).

ومنه أفيد توقيراً للكبير، فضلاً عن أهل العلم، كما أن فيه اعتناء بالنشء، فعليهم تبعة تحمل الديانة بعد، وفيه فضيلة تعظيم شعائر الله، وتعويد الصغار عليها، كما وأنه يشي بتواضع الرسول صلى الله عليه وسلم، ورحمته، وحنوه، وفيه فضيلة حبرنا وإمامنا ابن عباس، كما وأنه دليل اعتناء به، وتأهيله لمهمة رآه الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أهلاً لها.

وقال: كنت خلف رسول الله يوماً، فقال: يا غلام! إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف^(٢).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٨ / ٣٣٥

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٧٩٥٧

ومنه أيضاً غرس قضايا العقيدة لدى النشء، فعليها مدار الصلاح أو الفساد. والاهتمام بها أول ما يتوجه إليه بحفظه تعالى، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. ومن ثم تكون النتيجة الإيجابية أكدة بحفظ الله تعالى لعبده. والقول بغير ذلك سبيل وعرة نتائجه، على الفرد والجماعة كلها، فليتنبه لذلك.

خلاصة في فضله رضي الله تعالى عنه

أولاً: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس بالعلم والحكمة والفقہ في الدين.

ثانياً: حرص ابن عباس على طلب العلم.

ثالثاً: تقديم عمر لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

رابعاً: ثناء ابن مسعود على ابن عباس رضي الله عنهما.

خامساً: بعض من ثناء التابعين على ابن عباس رضي الله عنهما.

تلاميذه: مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وطاووس.

وفاته رضي الله تعالى عنه

وأصيب ابن عباس بالعمى في أواخر حياته، ومات عام ثمان وستين من الهجرة، وكان عمره إحدى وسبعين عاماً، وصلى عليه محمد ابن الحنفية.

عن سعيد بن جبیر قال: مات بالطائف وشهدت جنازته، فجاء طير لم يُرَ على خلقته ودخل في نعشه، فنظرنا وتأملنا هل يخرج فلم ير أنه خرج من نعشه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، ولا يدري من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ

رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي ۖ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]

وتلك نظرة عامة، حول حياة الحبر الإمام. وبقيت نظرات حول منهجه في تفسير القرآن الكريم، لزم التعرض لها ببيان؛ لشأوه في ذلك، ولسبب ما نسب إليه فيه، فوجب تحريره بإذن الله تعالى.

دعاوى وأباطيل حول ابن عباس

أولاً: وجود ابن عباس: وقد حاول نفر ممن لا ينتسبون إلى الإسلام طعناً في حبر الأمة وترجمان القرآن. وذلك نشتم منه رائحة الطعن في القرآن الكريم نفسه. ذلك لأنه ترجمانه! أيضاً وهو طعن في رجال الملة كلهم نيلاً من الملة نفسها.

ومنه ما قاله المستشرق كلود جيليو: إنَّ شخصية ابن عباس مُفتعلة وغير موجودة أصلاً^(١).

لكن الله تعالى قيض من عباده من قام بالرد على أولاء نفر بردود علمية متقنة، من أمثال الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه التفسير والمفسرون.

والحق أن عذرهم جهلهم بما كان عليه الحبر المفسر رضي الله تعالى عنه، وما روى من أحاديث بلغت المبلغ العظيم، قياساً على غيره من الصحابة الكرام، رغم صغر سنه وشبابه.

لكن العذر الحق لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ممن لم ينقل عنهم كثير رواية لأحاديث النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، لانشغال كل منهم بما كان قد أهله له الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، من مهام على ما سبق بيانه؛ ليحرز كل منهم الهدف الذي أنيط به تحقيقه. فذاك مجاهد، وذاك مفسر، وذاك خليفة، وذاك فاتح، إلى آخر ما لزم الخلافة من بعده من أطر، وما كان لها من شؤون؛ لتقوم الدولة آنذاك، ومن بعدها على أسس سليمة، تليق بكونها دولة طليعة في مقدمة الدول، وطلائع الخير على مر الزمان.

(١) مناهج المستشرقين البحثية في القرآن الكريم؛ د. حسن عزوزي: ٤٣

ثانيا: جملة الأحاديث التي رواها: وفي زماننا يُشكك بعضُ الطاعنين في عدد روايات الإمام الحبر الترجمان رضي الله عنهما في كتب السُّنة؛ حيث يقولون: لم يُثبت عن ابن عباس سوى ثلاثة أحاديث، بينما المرويُّ عنه ١٦٦٠ حديثًا؛ منها في الصحيحين ٢٣٤ حديثًا، وروى الإمام أحمد ١٦٩٦ حديثًا في مسند ابن عباس، مع أن ابن عباس لم يُشاهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في سِنِّ الثامنة.

وقد مر بنا أنه رضي الله تعالى عنه من الصحابة المكثرين من رواية الحديث، الذين جمعهم الإمام السيوطي في بيتين من ألفيته في علوم الحديث، حيث يقول:

والمكثرون في رواية الأثر أبو هريرة يليه ابن عمرو أنس والبحر كالخدري وجابر وزوجة النبي.

والبحر هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، المتوفى سنة ٦٨ هـ، وقد روى ١٦٩٦ حديثًا. انتهى. ولا غرابة إذا كان ابن عباس رضي الله عنهما من المكثرين في رواية الحديث، فقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالفهم والعلم، ففي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قال: " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْخَلَاءَ فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: (مَنْ وَضَعَ هَذَا؟)، فَأُخْبِرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ^(١) .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: " ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ " ^(٢) .

وروى الإمام أحمد عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي - أَوْ عَلَى مَنْكِبِي، شَكَ سَعِيدٌ - ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ ^(٣) .

وعزا السيوطي الكثير من الأحاديث المنسوبة لابن عباس لصالح الدولة العباسية.

(١) صحيح البخاري: ١٤٣

(٢) صحيح البخاري: ٧٥

(٣) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١٧٣ / ٦

ومنه يُتَبَيَّنُ أن: ١- هذه الدعاوى غير دقيقة بداهة، ولم تأتِ عن بحث بأدلة علمية؛ إنما هي تكهّنات، ومن يعرف علم الحديث وقواعده، يعلم أن التعميم دون أدلة، فيه إجحافٌ وادّعاء واسع، وما أثبتته المحدثون ضمن قواعد النقد والتثبت لا نردّها إلا بأدلة تماثلها في الدقة والتثبت.

٢- والاتفاق التاريخي المتواتر على وجود شخصية ابن عباس، في كل طبقة من طبقات الأُمّة، ولا نقض - علمياً - لهذا التواتر.

٣- وعاصر ابن عباس النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين شهراً، ومر بنا حديث الإمام مسلم (وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَتُّ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي مُتَطَوِّعًا مِنَ اللَّيْلِ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْقُرْبَةِ، فَتَوَضَّأَ، فَقَامَ فَصَلَّى، فَقُمْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ ذَلِكَ فَتَوَضَّأْتُ مِنَ الْقُرْبَةِ، ثُمَّ قُمْتُ إِلَى شِقِّهِ الْأَيْسَرِ، فَأَخَذَ بِيَدِي مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ يَعْدِلُنِي كَذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ إِلَى الشَّقِّ الْأَيْمَنِ. قُلْتُ: أَفِي التَّطَوُّعِ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَكَانَتْ خَالَتُ مَيْمُونَةَ زَوْجَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ مُتَفَرِّغًا لِلْعِلْمِ، يُصَلِّي مَعَهُ خَمْسَةَ فُرُوضٍ، وَأَحْيَانًا يَنَامُ عِنْدَهُ فِي بَيْتِ خَالَتِهِ مَيْمُونَةَ زَوْجَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَوْجَدُ عِدَّةُ أَحَادِيثٍ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ لِقِصَّةِ مَبِيتِهِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

ومنه سَمِعَ ابن عباس من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، ثم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سَمِعَ من أغلب الصحابة وروى عنهم، وكثير من رواياته عن الصحابة كما هي مثبتة في كتب الصحاح والتراجم.

كان ابن عباس مشهوراً بالفطنة والحفظ، لما شب عليه من حبة للعلم و دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له: (اللهم علّمه الكتاب)، وعندما لقيه كان عُمره قرابة عشر سنوات، وهو قد قارب البلوغ، ويمكنه الحفظ والتثبت.

(١) صحيح مسلم: ٥١٣٣٣

وروى ابن سعد في الطبقات أن ابن عباس رضي الله عنه كان يكتب الحديث، وقد ورث أبناؤه عنه كتبه، وكان عنده جملٌ بعير من الكتب. فقد روى ابن سعد^(٢) بإسناده إلى عبيد الله بن علي، عن جدته سلمى قالت: رأيت عبد الله بن عباس معه ألواحٌ يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

وذكر المحدثون من أسباب إكثار بعض الصحابة من الرواية والتحديث: وكان لابن عباس رضي الله تعالى عنه تلاميذ كثر، فقد ذكر المزي وابن حجر له ١٩٧ راوياً^(٢).

وتأخرت وفاته رضي الله تعالى عنه^(٣). حتى سمع من أغلب الصحابة وجمع العلم منهم، وقد مر بنا ذهابه إلى بيوت الصحابة والسماع منهم.

وقد مر بنا في هذه الدراسة فيض من حديثه، وقد أثبت فيها وفرة من نقله. ومنه حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري: (حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن أيوب قال سمعت عطاء قال سمعت ابن عباس قال أشهد على النبي صلى الله عليه وسلم أو قال عطاء أشهد على ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه قال أبو عبد الله وقال إسماعيل عن أيوب عن عطاء وقال عن ابن عباس أشهد على النبي صلى الله عليه وسلم^(٤)).

فرية روايته لأحاديث موضوعة: وما نُقل عن الإمام السيوطي بوجود أحاديث كثيرة موضوعة في فضل العباسيين تُنسب إلى ابن عباس. وكذا ما نسب إليه في التفسير أو غيره.

أقول: إن ما ذكر من أحاديث نسبت إليه رضي الله تعالى سواء في التفسير، أو فضائل السور، أو في فضائل العباسيين، وهي لم ترق إلى درجة الصحيح وهو منها براء. إذ ما ذنب امرئ ما جناه غيره عليه بلا سلطان من قول أو برهان من علم؟!

(١) المعجم الحديث في علوم الحديث، ساجد الرحمن الصديقي: ٩٨

(٢) تهذيب الكمال؛ المزي، ج ١٥/١٥٤-١٥٥

(٣) توفي ٦٨ هـ

(٤) صحيح البخاري: ٢٣٢/٩٨

الفصل الثاني

مفاهيم منهج ابن عباس في التفسير

وأوجز بياناً في تعريف المنهج لأقول:

مادة نهج لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور أن مادة نهج أي: طريق نهج: بين واضح وهو النهج، والجمع نهجات ونهج ونهوج.

وطرق نهجة وسبيل منهج: كنهج. ومنهج الطريق: وضحه. والمنهاج: كالمنهج. وفي التنزيل: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نهجا واضحا بينا. والمنهاج: الطريق الواضح. واستنهج الطريق: صار نهجا. وفي حديث العباس: لم يميت رسول الله - ﷺ - حتى ترككم على طريق ناهجة، أي واضحة بينة. ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته. يقال: اعمل على ما نهجته لك. ونهجت الطريق: سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه. والنهج: الطريق المستقيم^(١).

والمنهج اصطلاحاً أي: مجموعة من الإجراءات والخطوات والاختبارات والقواعد التي يتبعها أفراد يعملون في نفس المجال^(٢).

لماذا البحث عن منهج ابن عباس في التفسير؟!

وكلامنا دائر بمشيئة الله تعالى حول منهج الخبر الترجان ابن عباس رض الله تعالى عنهما في التفسير.

والسؤال الذي يفرض نفسه بداهة هو:

(١) صحيح البخاري: ٢٣٢/٩٨

(٢) الموسوعة الحرة

لماذا البحث من أساس حول منهج ابن عباس أو غيره في التفسير؟

والجواب بيسر: أنه من حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه من التفسير الشيء الكثير، وإنما نقل عنه تفسير كثير من الآيات، ولكنه ليس بالأكثر، والصحابة رضوان الله عليهم نقل عنهم من التفسير أكثر مما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم فسر من الآيات ما كان بحسب الحاجة. مثلما فسر قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].. بأن الزيادة هي النظر لوجه الله الكريم جلّ وعلا. ومثلما فسر قوله تعالى ﴿صَرَفَ الَّذِينَ أُنْعِمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. بأن المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى.

وكذلك فسر صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بأن القوة الرمي كما في الصحيح من حديث عقبة بن عامر أنه قال (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ^(١)).

كما أن منه ما فسر به الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. بأن الخيط الأبيض والخيط الأسود هما سواد الليل وبياض الصبح أول ما ينفجر.

وهكذا في مواطن من القرآن الكريم، وحسب حاجات الناس وأقضيتهم، في ذلكم الحين.

(١) صحيح مسلم: ١٩١٧

ومن حيث كان ذلك كذلك من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر القرآن كله. فلزم حينئذ البحث عن مفسر لكلام الله تعالى، يكون لصيق الصلة بالقرآن، وبالرسول في آن. ومن جانب ثالث ما تأهل به الإمام الحبر الترجمان من صفات وخصائص، مكتته من تبوء هذه المنزلة، ونيل ذلكم فضل. ليكون له شرف صحبته للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن ثم يكون له شرف معرفة معاني الكتاب المجيد لمثل هذه الصحبة، ومن جانب آخر ما حظيت به سيرته على طول الزمان وعرضه محبة وشرحا وتفسيرا وبحثا عن مناقبه. ولذلك شرف العلم والمعرفة اللذين حظي بهما عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما.

بيد أنه أيضاً قد وجدت أنسا بالإشارة إلى أنه كان من توفيقه تعالى أن قيض لعلم التفسير أهله، وكان من اختياره تعالى الجميل - وكل اختيار له تعالى جميل - أن يقع الاختيار على صنف قريب العهد بنزول القرآن، وبصحبة النبي الكريم في آن.

ذلك لأنه كان يمكن اندراس المعاني بتقادم الزمان، ولما لم نجد لها مبينا لنعيش خبط عشواء. كما حال أصحاب الديانات الأخر. إذ كما تحكي الدراسات الموثقة أن العهد الجديد، وهو الإنجيل، لم يكتب من أصله إلا بعد مرور ثلاث مائة سنة من نزوله، وبعد موت المسيح عيسى عليه السلام. فكان ما أصابه من تحريف، وما دخل عليه من أقوال عند النظر الأولي إليها، لا يشك مُلِمٌ ولو بقليل إلا أنه من أقوال بشر. ولا يمكن بحال إسنادة جملةً إلى الله تعالى^(١).

وإذا كان هذا ما أصاب التنزيل - العهد الجديد والعهد القديم - فما بالناس بما يمكن أن يصاب به تأويله؟!

(١) مدخل إلى العهد الجديد، العهد الجديد، لجنة من اللاهوتيين، دار المشرق، الطبعة السادسة عشر، بيروت ١٩٨٨، بإذن الخور أسقف بولس باسيم، النائب الرسولي للاتين في لبنان، ص: ٢٣

ذلكم والله تعالى بفضلله وجوده ومنه وكرمه أحاط القرآن الكريم بالحفظ نصاً، وبالبيان تفسيراً ليبقى اعتقادنا فيه أنه محفوظ كما قال الله تعالى ربنا سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وثمة قول آخر؛ إذ لما كانت حاجة البشرية إلى من يقوم بتفسير كلامه تعالى حاجتها إلى طعامه أو أشد حاجة لتعلق ذلكم أمر بدينه تعالى وما يمكن تصويره إذا خلا الزمان من قائم بذلكم الواجب العظيم من جهل عقدي، ومن سفل أخلاقي، ومن خبط عشوائي، ومن هوى متبع يمكن أن يساق إليه الإنسان بهواه حسب حاجاته وميوله.

أقول: ومن مثل ذلكم وغيره كانت الحاجة قائمة إلى قائم بأمر تفسير كلام الله تعالى لصيق عهد بالنزول ولصيق عهد بالرسول لتألف منظومة التفسير ولتتألف أصول التأويل والله تعالى هو حسبنا ونعم الوكيل.

استقراء المنهج

واستقراء منهجه رضي الله تعالى عنه في التفسير ليس أمر صعب المنال. ذلك أنه نص في كلام موجز فصيح أفصح به عن مناهج التفسير عموماً، وما يمكن أن نعرف منه منهجه نفسه في تفسير كلام الله تعالى.

وإنما قلت استقراء؛ ذلك لأن مناهج المفسرين إما أن ينص عليها صراحة في تفاسيرهم بدايتها أو أثنائها أو أن تستقرأ من سياق كلامهم ضمناً. ومنه قلت استقراء لأنه رضي الله تعالى عنه قد ساق عبارة عامة اعتبرت منهجاً له في التفسير. ذلك لأنه لم يقل إن منهجي في التفسير مبني على هذه كلمة أو أنه مأخوذ من تلكم عبارة.

ابن عباس المجتهد

وبلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تخرجه منه، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق، دونما اعتبار لكثير نقد أو قليله؛ من حيث إنه يعرف الحق، ويستبين أدلته، ومن ما أكرمه ربه تعالى، ببصيرة نافذة، وعلم صائب.

لكنه، وقد عرف أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يأخذ عليه جرأته، وينقم عليه شجاعته، إلا أنه سرعان ما رجع إلى صوابه، مؤيدا له، ونصيرا، لما أن وقف على حقيقة علمه النافذ، وبصيرته المتقدة.

قال أبو نعيم أثناء كلامه عنه: حدثنا أبو بكر بن خلاد، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، ثنا إبراهيم بن حمزة، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله، عن السماوات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني ما قال، فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس: كانت السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: إن ابن عباس قد أوتي علما، صدق هكذا كائنا، ثم قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي علما^(١).

معالم منهج الخبر الترجمان في التفسير

وحسن أن أجلي معالم منهجه رضي الله تعالى في تفسير كلام الله تعالى. ومن ثم أردف ذلكم بتفصيل يناسب المقام حول تطبيقات تلكم المعالم لنقف على رسوخ قدم وغزارة علم ومدرسة تفسير قمن بها أن تكون كافية لدرس علم تفسير كتاب الله تعالى ربنا

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم: ٣٢٠

الرحمن. وما بالناس إذ ذن يوم أن نتنسم من مدرسته نسيما! وما بالناس ونحن نتذوق ثماراً غضة من تفاسير آخر لكلام الله تعالى من إخوانه الصالح الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين! وما بالناس ونحن نتذوق الشجى من عبر كل مدل بدلوه وصولاً بنا إلى جامعة تفسيرية لا يجد امرؤ أمامها إلا خضوعاً لمنزل القرآن! وليس بواجد أمامها إلا سجود شكر له تعالى يوم أن قيض جماعة مؤمنة قامت بحق كتابه نظراً وتفسيراً وتدبراً! حتى لا يكاد أحدنا يجد صعوبة أو تصيبه من هنة وهو باحث في أية آية من كلام الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

وهو من باب ما قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وإبان الكلام حول القرآن ومنهج الخبر في تفسيره أشير إلى جهد بالغ قد بذل حفظاً وجمعاً للكتاب الكريم. وكان جهد الترجمان حلقة من تكم جهود متواصلة على مر الزمان قام بها أصحاب كرام كل في تخصصه ليبقى القرآن المجيد محفوظاً بحفظه تعالى له. ثم أن جعل هذا الركب الكريم أداة طيبة في القيام بتيكم مهمة هي أشرف المهمات لما لها من تعلق بخير كتاب، ولما لها من اهتمام به. كونه كتاب الله تعالى بالدرجة الأولى. إذ كما ورد أن زيد ابن ثابت بذل جهداً مشكوراً في جمعه من الرقاع، والأكتاف، والعشب، واللخاف، والأضلاع، والأقتاب، والألواح، وقطع الأديم، والكرانيف. القرطاس؛ الدواة؛ القلم؛ المداد؛ الخبر.

هذا؛ وقد حدد الخبر الترجمان معالم منهجه في التفسير بقوله: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله). وهذا قول مأثور مستفيض عنه رضي الله تعالى عنه. وقد ذكره الإمام الزركشي في كتاب البرهان في علوم القرآن^(١).

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ج ٢/ ٣٠٧

مدخل للمسألة

ومن حيث أريد الكلام حول منهج التفسير عموماً، ومنه ما جاء عن الخبر الإمام الترجمان رضي الله تعالى عنه. حسنت مقدمة لبيان معاني القرآن، وكونها جاءت فيه على أربعة أقسام، أوجزها فيما يلي:

ما اختص الله تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه، ولا تعاطي معرفته، مثل قوله تعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها. ومنه نعرف معنى قول الترجمان (وتفسير لا يعلمه إلا الله).

وما كان ظاهره مطابقاً لمعناه، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها، عرف معناها مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً، مثل قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فإن تفصيل كل من الصلاة والزكاة لا يمكن معرفته إلا بالوحي؛ ولذا جاء في البخاري عن مالك بن الحويرث قال أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شعبة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رفيقاً فلما ظن أننا قد اشتبهنا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرنا قال ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتموني أصلي فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم^(١).

ومنه حديث جابر بن عبد الله: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِنَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ^(٢).

وما كان اللفظ مشتركا بين معنيين، فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مراداً.

ومنه ندرك كيف تأتي للإمام الخبر الترجمان إحاطة بمثل ذلكم فيض من علم، وكيف أنه أكرم بكرم الله تعالى ربنا ومولاه بذلكم عطاء كان نتاجه هذه الآثار، والجواهر من مواهب، وتلكم الكنوز من فقه!

وقد روى عبد الرزاق في تفسيره: حدثنا الثوري عن ابن عباس ؓ أنه قسم التفسير إلى أربعة أقسام: قسم تعرفه العرب في كلامها، وقسم لا يعذر أحد بجهالته؛ يقول من الحلال والحرام، وقسم يعلمه العلماء خاصة، وقسم لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب^(١).

وأما استشكال قد يرد حول صحة نسبة أوجه منهجه في التفسير رضي الله عنه؛ فهو أثر قد تلقته الأمة بالقبول. فضلا عن أنه حق لا ريب فيه ومنحى يشبه الوحي في نسقه وكأنما كانوا صحبا كراما ينطق الحق من أفواههم نطقا عبيرا ومنه ما جاء من حديث عبد الله بن عمر أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عَمَرَ وَقَلْبِهِ).^(١)

وذلكم إيجاز لزم له بيان.

ولسوف أجول جولات عدة في شرح ما أراه نافعا لبيان المقصود من هذه الأربعة تباعا، وبالترتيب الوارد فيها على أربعة مطالب.

المطلب الأول: الوجه الذي تعرفه العرب من كلامها.

المطلب الثاني: التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته.

المطلب الثالث: التفسير الذي يعلمه العلماء.

المطلب الرابع: التفسير الذي لا يعلمه أحد إلا الله.

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢ / ١٦٤

والله تعالى هو الموفق لنيل أعلى المطالب في إصابة الحقيقة لتعلقها بكتابه ولتميزها بسبب كتابه الكريم أيضاً.

المطلب الأول

الوجه الذي نعرفه العرب من كلامها

منهج الإمام الجبر الترمذاني في بيان معاني القرآن

لقد بلغ حَبْر الأمة وترجمان القرآن الصحابي الإمام عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما - شأواً عظيماً كريماً بالنحو بكتاب الله تعالى ربنا الرحمن تفسيراً وتأويلاً، حتى كان بذلك ذائع الصيت، وحتى بلغ من تفسيره أن نال قبولاً لدى عموم المفسرين والفقهاء وأولي العلم، تبركاً بما جاء من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ، يُحَدِّثُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْخُلَاءَ فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءاً، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ وَفِي رِوَايَةٍ زُهَيْرٍ قَالُوا: وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ، قُلْتُ: ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ" (١).

وإنما لم يكن قد نال هذا الشأو الرفيع السامي، وإنما لم يكن قد تقلد هذه الفضل السامق العالي إلا بسبب هذا الدعاء، وإلا بسبب ما أفرزه منهجه في تفسير كلام الله تعالى حين: " قَسَمَ التَّفْسِيرَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: "قِسْمٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي كَلَامِهَا، وَقِسْمٌ لَا يُعَدَّرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ؛ يَقُولُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقِسْمٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ خَاصَّةً، وَقِسْمٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ" (٢).

والكلام ها هنا في القسم الأول من هذه الأقسام الأربعة، وهو قوله: "قِسْمٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي كَلَامِهَا".

وكمدخل لدراسة هذا القسم، فإني أعني بذلك أموراً عدة؛ منها:

(١) صحيح مسلم: ٤٦٥٣

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٣٤٠

١- إن الإمام الخبر الترجمان رضي الله تعالى عنه قد بدأ بها قواعده التي اعتبرناها منهجاً له في التفسير؛ مما يؤصل كونها من الأهمية بمكان، ذلك أن الذي تعرفه العرب من كلامها يتضمن أول ما يتضمن ما تواتر عن لسانهم لغة ونحواً وصرفاً وبناءً ومعنى، وما كان مرجعه إلى ما يلزم المفسر العلم به ليتنزل كلام الله تعالى عليه، وبالتالي يكون شاملاً لأقسام: العمل دون العلم، أو العلم دون العمل، أو هما معاً.

وقد جاء قوله رضي الله تعالى عنه في بيان أوجه التفسير مأخوذاً على ما يبدو مما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن عبدالله بن عباس أن رسول الله قال: "أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعتذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره، ومن ادعى علمه سوى الله تعالى ذكره، فهو كاذب"^(١)؛ وهو ما يعطيه قوة، ويمنحه قبولاً؛ قال الطبري: "وقد روي بنحو ما قلنا في ذلك أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرٌ في إسناده نظر"، وإنما قال الطبري: "فيه نظر"؛ لأن الذي رواه هو الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وإن أمر اللغة والعلم بها ينحى فيه ما كان متعلقاً بما يحيل المعنى، وذلكم شأن المفسر وقارئ التفسير معاً، وما لم يكن محيلاً للمعنى، فذلكم "وجب تعلّمه على القارئ ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسر ليتوصل إلى المقصود دونه على أن جهله نقص في حق الجميع"^(٢).

٢- إن ما ورد عن الإمام الخبر الترجمان بياناً لمعاني القرآن الكريم في كثير من المواضع، إنما كان متعلقاً باللغة العربية بدرجة كبيرة، وخاصة إذا اطلعنا على

(١) تفسير الطبري: ج ١ / ٧٦

(٢) البرهان: الزركشي: ٣٠٧

مسائله مع نافع بن الأزرق، وهي مسائل مشهورة في مظانها، وقد تلقتها الأمة بالقبول، وكيف كانت كلها مستوحاة من مفردات اللغة العربية القحّ.

٣- إن القرآن الكريم كتاب عربي، وبالتالي لا يمكن فصل بيان معناه عن أصول المفردات العربية واستعمالات العرب لها؛ مما يمكن أن نعتبره مرجعاً معتبراً في ذلكم، وسامياً على غيره بالتبع، غير قرآن أو سنة، تبين ما ينهض دليلاً على المراد إسعافاً، وبنص صريح، غير ملجئ إلى بيت شعري، أو إلى نص نثري، أو مما سواهما من كلام العرب.

ذلك وإنه من وجه، فإن ما جاء عن العرب يتضمن ما كان متعلقاً بما يوجب العلم دون العمل، وذلكم يكفي فيه خبر الواحد، والاستشهاد ببيت أو بيتين من أشعارهم، كما أنه متضمن ما كان متعلقاً بالعلم والعمل، وذلك مما أوجب استفادة رواية الشعر بشأنه؛ ليعلم مدى إطباقهم على ذلكم المعنى أو ذاك.

وليس من شك في أنه - رضي الله تعالى عنه - قد وُفق تمام التوفيق في تأكيد اعتماد اللغة العربية بوصفها أول أصلٍ يمكن الرجوع إليه لمعرفة مراد الله تعالى من كلامه سبحانه بعد الأصلين الأولين، وهما القرآن الكريم نفسه، ثم حديث رسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك. وسببه أن القرآن قد نزل بلغتهم، ومن ثم كان اعتماد مرجعيتهم في ذلكم هو قولاً فصلًا، ذلك أيضاً لأن القرآن الكريم نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

ومنه استفاضت إحاطته بمفردات اللغة وغريبها ونحوها وصرفها وبيانها وبديعها، وتوجيه ذلك حسب استعمالات العرب لذلكم اللفظ أو ذاك، وهي براعة بلغ فيها الأوج العظيم والصيت الكريم؛ إذ كان يعرف النص ونظيره، والكلمة ومعناها، وكيف كان القرآن الكريم متقنة صنعته، حتى جيء بالكلمة هنا، وحتى جيء بمبرادفها هناك.

ولا يُتَسَاهَلُ بأمر اللغة، فدلالات الألفاظ عديدة، وهي بحر لا ساحل له؛ إذ كيف يمكن النظر إلى دلالة اللفظ الواحد من بين خيارات كثيرة لتيكم دلالة للوقوف على المقصود منه؟ فهل يا ترى هي دلالاته اللفظية العقلية كسماع صوت ليدل على متكلم؟ أم هي دلالاته العقلية غير اللفظية، كرؤية دخان ليدل على نار؟ أو هي دلالاته الطبيعية اللفظية كقول (آه) أو (أخ) ليدل على تأوّه. ومنه أيضاً دلالة طبيعية غير لفظية، كدلالة سرعة النبض على مرض، ودلالة وضعية غير لفظية، مثل إشارات السير على الطرق، أو دلالة وضعية لفظية، كدلالة الألفاظ على معانيها، والقرآنية منها أخص.

ومن بين كل هذه الدلالات كان المعنى منها هو الدلالة الوضعية للألفاظ مطابقة؛ كقولنا: رجل؛ لنستحضر ذكورة، أو امرأة لنستحضر أنوثة، أو تضمناً؛ كقولنا: رجل؛ لنستحضر أن له شارباً ولحية، أو امرأة لنستحضر خلوها من ذلك، أو التزاماً كقولنا: (حاتم)، أو (كثير الرماد) دلالة على الكرم، وبسط كل ذلكم له موضع آخر، وإنما أردت - بيئاً - أن أمر اللغة العربية واسع مداه، وأن مثل الإمام الحبر الترجمان كان واسع الاطلاع بكل - ضرورة - مما أكسبه علماً، ومما منحه شرفاً، وذلك على ذلك قوله لَمَّا سئل رضي الله عنه: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول ﴿١﴾.

ومن كل ذلك نعرف كيف تضلّع بها حبر الأمة وترجمان القرآن، وكيف أنها كانت سليقته، وكيف أنها صارت سجيته؟

ومنه أيضاً استشراف علمه لبيان المقصود من اللفظ القرآني على مراده تغلباً، وتلك وظيفة جدّ ذات أهمية بالغة، ولم يكن أهلاً للقيام بها خير قيام إلا أمثال ذلكم الحبر وصحبه الكرام.

ولئن قيل: لِمَ؟ قلت: لأنهم أهل العربية سجيّة، ولأنهم تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم قد نزل القرآن فيهم وبين أيديهم، ومنه فكانوا أعلم بهديّه، وكانوا

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي: (١ / ٧٠)

أدرك لمراميه ومعانيه وأهدافه عمن سواهم، وخاصة أنهم كانوا أحرص على تلقي الوحي نبأ صافياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد عرفوا منه علمه، وقد أحاطوا منه له ذكراً، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وقد زاد من ذلكم فضل عائد إليهم أنهم أهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى، وهي نعمة تسامق بهم فضلاً إلى بلغوا بها أعنة جبال تطاول عنان السماء؛ إذ من ذا في الفضل يمكن أن يجاريهم، وإذ من ذا شأو كمثلهم فيساويهم، وهم من قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوكُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوكُهُمْ، - قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَذْرِي: أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْدُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ"^(١).

ذلك أن الكشف عن مضمون اللفظ وتعلقه بالكتاب المجيد واختيار وجهه، ليعد ملكة ما كان ليقوم بها لولا ضليع في معرفة اللغة ومراميها.

فما يتعلق بتفسير السياق القرآني، وما لا يتعلق به أمر بالغ، وليس يبلغه أيضاً سوى من كان شأؤه شأؤه، أو بالغ مبلغه وعلمه، وليس يكون ذلكم إلا له، ولمثل من أطبقت عليهم الشهادات أنهم منها؛ إذ ما بلغ أحد مبلغه من علم، وما سايره أحد في استدلال، ونعرف ذلك مما تواتر من ثناء القوم عليه، ومن إطرائهم له رضي الله تعالى عنه، ثم إننا نعلم ذلك يقيناً من خلال إرث علمي قد تركه لنا رضي الله تعالى عنه مائدة تتحلق حولها نهل من خيرها، ونتنسّم من هديها!

ومنه جاءنا كتابه تعالى بليغ البيان، عظيم البنيان، سائغ المعنى، سليم المبنى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿الزمر: ٢٨﴾.

(١) صحيح البخاري: ٣٤٨٣

لا تكلف فيه ولا ثفرة، بل إعجاز في بلاغته، وتحدُّ في صياغته، بما أعجز العرب البلغاء أنفسهم أن يأتوا بسياق من سياقه، أو آية من آيه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٨].

وذلكم أيضًا بفضلته تعالى، ثم بفضل أمثال الإمام الخبر الترجمان، وذلكم ينظر إليه حين لا يكون النص من قرآن أو سنة مغنيًا لمفسر أو بينًا لقارئ، وإنما كان القرآن ميسرًا في كل شيء، ومنه تأويله، غير أن أدواته ربما لم تسعف أحدًا منا.

وإنما تدفع الحاجة لمعرفة كلام العرب حاجتنا لمعرفة معاني كلام الله تعالى ومغازيه ومراميه، حتى إن جاء نص من القرآن الكريم أو السنة مفسرًا له، فلربما كان غير كاف لمعرفة مراده تعالى، وما يبتغيه النص توجيهًا للمخاطبين به، ويبين ذلك أكثر لما نكون بحاجة إلى بينة من كلامهم تُعين على المقصود من المعنى الذي يُحيله ذلكم البيان اللغوي لمعنى كلامه تعالى، خاصة حين يعلم أحدنا من نفسه حاجته إلى معنى يخالج نفسه، ولما قد استوحاه من قوله تعالى في هذا المكان أو ذاك من القرآن العظيم، ولما أراد الاستئناس لقوله بقول غيره، وحين ذلك لا يكون من أمامه سوى هؤلاء الرهط الغر الميامين، ومنه كان بيان الإمام الخبر الترجمان لأهمية تفسير القرآن بمقتضى ما عرفته العرب من لغتهم.

ومما ينبئ عن أهمية معرفة كلام العرب تفسيرًا: ما أشار إليه الإمام الخبر الترجمان نفسه حينما قال: "كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرْتُها؛ أي: بدأْتُها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: بديع السماوات والأرض" (١).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣ / ٥٥٤

ولم يكن ذلك عند ابن عباس وحده، وإنما كان عهداً لدى الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ومنه ما كان من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، كما قال سعيد بن المسيب: "بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر، قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧]، فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف التنقص، فخرج رجل، فقال: يا فلان، ما فعل دينك؟ قال: تخوفته، أي تنقصته، فرجع فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي، يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَأْمِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفْنُ^(١).

ومنه أيضاً ما رواه الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [عبس: ١] ، فَلَمَّا أَتَى عَلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَفَكَهَّةً وَأَبَّا ﴾ [عبس: ٣١] ، قَالَ: عَرَفْنَا مَا الْفَاكِهَةُ، فَمَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: لَعَمْرُكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ^(٢).

وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجِنْسَهُ وَعَيْنَهُ، وَإِلَّا فَهُوَ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، لِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ [عبس: ٢٧] وَعَبًّا وَفَضْبًا^(٣) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا^(٤) وَحَدَائِقَ غُلْبًا^(٥) وَفَكَهَّةً وَأَبَّا^(٦) [عبس: ٢٧-٣١]^(٣).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣ / ٥٥٤

(٢) تفسير الطبري: ج ١٢ / ٤٥١

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٤ / ٥٢٢

ولننظر إلى تفسير معنى القرء، وكيف كانت لغة العرب حاكمة في بيان معناه؛ كما قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال: ثلاث حيض^(١).

وعن أبي عمرو بن العلاء قال: "من العرب من يسمي الحيض قرءاً، ومنهم من يسمي الطهر قرءاً، ومنهم من يجمعهما جميعاً، فيسمى الحيض مع الطهر قرءاً"^(٢). كما قال الشاعر:

يا رب ذي ضغن علي فارض له قرء كقرء الحائض

يعني أنه طعنه، فكان له دم كدم الحائض.

قال البغوي رحمه الله تعالى: "والقرء يصلح للوجهين؛ لأن الحيض يأتي لوقت، والطهر مثله"^(٣).

وأنت ناظر كيف احتكم المفسرون - ورائدهم في ذلك الإمام الخبر الترجمان - إلى مدلول القرء في لغة العرب، بيانا للقرآن حين يلزم لذلك احتكام؛ ذلك لأن القرآن إنما أنزله الله تعالى: ﴿فَرَأَيْنَا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ومن إبانته قولهم، ومن تأويله ما درجوا عليه في استعمالات الألفاظ ومدلولاتها، فهي أهم، وإنما كان الاحتكام إلى لغة العرب في بيان مراد الله تعالى في كتابه، ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (المعروف الجمعي من كلام العرب)؛ ذلك لأنه ليس كل عربي بمحيط لكل مدلولات الألفاظ العربية ومفرداتها، وخاصة إذا استدعينا لهجات العرب

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢ / ٥٩٦

(٢) معاني القرآن، النحاس: ج ١ / ١٩٦

(٣) معالم التنزيل: البغوي: ج ١ / ١٣١

وتعدُّدها، وهو أمر معروف عمومًا، وذلك لأنه ليست العرب في مجموعها بجاهلة عن معنى من معاني أفراد لغتها، وخاصة إذا استدعينا لهجات العرب وتعدُّدها، وهو أمر معروف عمومًا، فالنظر إذاً إلى عمومهم فيما اصطلح عليه في عرفهم حول ذلكم لفظ أو ذلك.

والقول بذلكم قول هو ما يمكن به دفع شبهة قوم أنه إذا كان القرآن بيأناً لكل شيء، فلم إذا كان الرجوع إلى غيره لبيانه؟! وهو قول يحمل ضَعْفًا ووهناً؛ ذلك لأنه كما سلف ليست الخليفة كلها على مستوى واحد من العلم بلغتها، أو فَهْم ألفاظها، وهو أمر معاین طبعًا، وليست كذلك أفراد اللغة من الشيوع في كل قبيلة بما ليس قد كان شائعًا فيها من لغات قبائل أُخر.

وخذ معك أصلًا مؤصلًا؛ إذ إننا لنعلم أن الوجه الحسن في تأويل كلامه تعالى، إنما هو من آي الذكر الحكيم القرآن العظيم، وإنما هو مِن في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما نعود إلى غيرهما استثناسًا؛ عندما لا يسعفنا دليلٌ من الكتاب، أو قول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو تأكيدًا لفَهْمنا منهما أن ذلكم هو مراده تعالى من قوله سبحانه.

ومنه كان لقول من قال: إن المقصود بالأحرف السبعة هو لهجات العرب على اختلافها وجاهة، وكان لمسلكه مسوغًا، وبسط هذا ليس موضعه، وإنما المقصود بيان عدم إحاطة العرب في مجموعهم لما عليه لغتهم من ثراء زائها.

وكما سبق وأشرت فإن الكلام حول منهج ابن عباس في التفسير يبدو واضحًا أول ما يبدو ذلكم الجهد المبذول منه رضي الله تعالى عنه في البيان عن الله تعالى، حتى أوقف أمثالنا على يقين من القرآن هاديًا ونذيرًا.

ولنعلم جميعاً مدى الفهم الثاقب للحبر الترجمان، وكيف واءم رضي الله تعالى عنه بين أوجه البيان في الكتاب للكتاب، وكذا أوجه بيانه؛ كما جاء في السنة من معرفة إجمال وتفصيل، ومطلق ومقيد، ومحكم ومتشابه، وعام وخاص، وناسخ ومنسوخ، وحلال وحرام، وواجب ومندوب، ومستحب ومكروه، ومعنوي ولفظي، ومتصل ومنفصل.

وكلها أصول أحكام وجب علمها لفهم الكتاب ومقاصده؛ إذ كيف كنا سنعرف معنى الظلم لولا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عبدالله، قال: ﴿لما نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أئنا لا نظلم أنفسنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (١).

ومنه ما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، أنه قال: "يقولون: إنك لست بحليم ولا رشيد" (٢).

ولولا علمه بمقاصد اللغة وكلام العرب، ما كنا قد فهمنا فهمه أن ذلك كان منهم على وجه السخرية والاستهزاء، وإن قيل: كيف؟

قلت: لأن ظاهر كلامه رحمه الله تعالى أنه مخالف ظاهر النظم القرآني الكريم، ولما قد علمنا براءته من ذلكم سلفاً، فكان توجيه كلامه على وجه من توجيه اللغة حينئذ، وخاصة إذا علمنا أن القرآن المجيد قد تضمن كثيراً من الألفاظ التي لا يمكن أن تؤخذ على ظاهرها، وإنما سياقها حامها، وإنما لغته ضابطها، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ

(١) صحيح مسلم: ٢٠٧

(٢) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار (تفسير محمد رشيد رضا)، ج ١٢ / ١١١

أَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]. وذلك لأنه "فإن قال قائل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذلُّ بالعتلِّ إلى سواء الجحيم: إنك أنت العزيز الكريم؟ قيل: إن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] غير وصف من قائل ذلك له بالعزَّة والكرم، ولكنه تقريعٌ منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا، وتوبيخ له بذلك على وجه الحكاية؛ لأنه كان في الدنيا يقول: إنك أنت العزيز الكريم، فقليل له في الآخرة، إذ عذب بما عُدَّ به في النار: دُق هذا الهوان اليوم، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وأنت أنت الذليل المهين، فأين الذي كنت تقول وتدَّعي من العزِّ والكرم، هلاً تَمتنع من العذاب بعزَّتكَ" (١).

ويؤيِّده قول ذي النورين عثمان رضي الله تعالى عنه فيما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَّق؛ قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة

(١) تفسير الطبري: ج ١١ / ٢٤٧

بن ثابت الأنصاري: ﴿يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف^(١).

والشاهد قوله: (فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم)، فهو دليل على اعتماد اللغة العربية في كتابة الكتاب المجيد، فضلاً عن أن تكون معتمداً لتفسيره.

وهذه عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ثناءً على الإمام الخبر الترجمان علماً على تفسير كلام الله تعالى، (وأما التفسير، فإن أعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاوس وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم)^(٢).

بيد أن ما يجب لفت أنظارنا إليه أن اللجوء إلى كلام العرب إنما يكون واجباً حينما لا تسعفنا أدواتنا لمعرفة معنى من معاني الوحيين في الدلالة، لكنه إذا كان له وافيًا، فوجب اعتماده، وشأنه أنه كاف في البيان والتفسير لكلام الله تعالى.

معرفة بعادات العرب

وكان من منهجه رضي الله تعالى وغيره من الصحابة الكرام معرفة عادات العرب. وهي ضرورة من ضرورات إعمال النصوص حسبما توارد عليه القوم من عادات. إذ إن القرآن الكريم نفسه إنما نزل مراعيًا أحوال القوم. ومنه مسألة التدرج في تحريم الخمر ومنه مسألة الحجاب وغيرهما مما كان ينزل من القرآن حسب أفضية الناس وحاجاتهم. كيما يتوافق كونه قرآناً سماوياً مع كونه نظاماً اجتماعياً ليحبك الناس من ثم نظامهم متوافقاً مع نظام القرآن الكريم. والقول بغير ذلك ينتج فصاماً بين القوم وقرآنهم. وترجمان القرآن لأنه يعرف ذلك تماماً فإنه راعى هذه المسألة في أوسع أبوابها.

(١) صحيح البخاري: ٤٧٢٢

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج ٨ / ١٥٥

وليس يقال من ذلكم إن القرآن ينزل محابياً! وقول بذلك هو من التجني على كتاب جاء هادماً أصنام الشرك في القلوب بمعاوله الكريمة عندما صدح من ضمن ما صدح به ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. وغيره مما حفل به القرآن الكريم في إعلان عام ألا معبود بحق إلا الله تعالى مجابها بذلك شرك البشرية المقيت في ربها الرحمن سبحانه. والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وحده.

والقول بذلك شيء والقول بمراعاة عادات الناس الاجتماعية الموروثة والتدرج بهم إلى أن ينتقلوا من الشرك كله إلى الإسلام كله شيء آخر تماماً. ومن ثم تكون أفئدتهم قد هيئت لتلقي أمر الله تعالى كله في دقيق أو جلي، وأن ذلكم قد أصبح أمراً ميسوراً. هذا فضلاً عن أن كل عادات القوم لم تكن كلها في تصادم مع الدين الجديد. وإعطاؤها قدراً من الاهتمام والرعاية هو الحق ومن دونه الباطل. ذلك لأن الإسلام لم يجيء لكي ينقض كل ما كان وإنما جاء لينقض كل ما خالف منهج الله تعالى في أرض الله تعالى.

وقول بذلكم هو ما يتماشى مع تاريخ البشرية الطويل، ومع ما تعارفت عليه، أو انتسبت إليه. فطرة سوية كان قد تبقى منها الشيء الكثير منهجاً معمولاً به في مجتمعات العرب خاصة. ذلك لأنهم كانوا على اتصال ببقايا من ملة إبراهيم عليه ﴿قَانِنَا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وكذا وجود أهل الكتاب بين ظهرائهم، وكان فيهم بقايا مما فطر الله تعالى الناس عليها.

ولا ننسى في ذلكم أيضاً أن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قد أشارت إلى أنواع النكاح التي كانت موجودة، ومعمولاً بها في عصر ما قبل الإسلام، وكان منها النكاح الشرعي في الإسلام. فطرة وبقية مما توارثه القوم كما سبق من حنيفة إبراهيم أو من بقايا أهل الكتاب.

وانظر إلى قولها تذكيراً لنقف على تيكم حقيقة، فيما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرت عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتكم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم^(١).

والشاهد قولها (فَنِكَاحُ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلَيْتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصَدِّقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا) دلالة على اعتبار ما كان متوافقاً مع فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها. البخاري: ٤٨٣٤

وبداهة؛ لم تكن هذه الحقائق وغيرها غائبة عن سيدنا الخبر الترجمان. ومنه كان علمه بأعراف الناس غير المتصادمة مع دين الله تعالى الإسلام أمراً هو لدين الله تعالى نفسه. كيما يحدث توافق نفسي وعقدي مع القرآن في آن.

ومن ذلك ما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]. حيث أمر الله تعالى بإتيان البيوت من الأبواب، وترك الإتيان للبيوت من ظهورها وذلكم لا يتأتى معرفته إلا بالرجوع إلى عادات القوم في هذا الشأن. معرفة بتاريخهم، وإدراكا لحالهم في ذلك. ومنه نعلم معنى هذه الآية إسقاطا لا يتنافر مع ما ليس فيه حرام أو حلال.

أكرر أن هذه المعاني لم تكن بغائبة عن مفسر يدرك مغازي كلام الله تعالى وتوجيهاته. هذا فضلا عن الخبر الترجمان وصحبه الكرام.

وكان من منهجه رضي الله تعالى خلو كلامه من سرد كسردنا ومن إطناب كإطنابنا. وإنما قوله فصل، وكلامه وجيز، وحديثه قصد. يصيب المعني بأقل مبنى. وهذه موهبة كانت لدى إخوانه من الصحب الكرام كلهم. ومنه تطمئن النفس إلى أن أقوالهم عموما بركة. فضلا عما جاءنا عنهم تفسيراً لكتاب الله تعالى القرآن المجيد.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في كتاب فضل علم السلف على علم الخلف: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة.

وأفيد قصد الكلام، وإيجاز البيان.

وكان من منهجه رضي الله تعالى عنه ما فتح الله تعالى به عليه من حسن احتجاج بكلام الله تعالى وتنزيله إنزالا صحيحا وموفقا على المسألة محل النظر.

وقد أوتي في ذلك ولله الحمد ما اعتبره قد عز أن يورد على غيره. وذلكم من توفيقه تعالى لعبده أن يرزقه بصيرة نافذة في كتابه تعالى. وهي أداة من أدوات البركة التي أوتيتها

رضي الله تعالى عنه. كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].
وكأنني به فيما قيل (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمُ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(١).

(١) قال الألباني رحمه الله: موضوع. أخرجه أبو نعيم (١٠ / ١٤ - ١٥) من طريق أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس مرفوعاً، ثم قال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولة وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.
قال الألباني: قلت: وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

المطلب الثاني

التفسير الذي لا يفذر أحد به الله

وهو ما كان راجعاً إلى معرفة الله تعالى بما أودعه الله تعالى في الفطرة وبما جاء عن الرسل منزلاً في الكتب مما لا يحتمل إلا معنى واحداً من كون أن الله تعالى أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته، وذلك مما يمكن فهمه بسلاسة ويسر من قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَلَكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

وكذا من مثل ما كان معلوماً من الدين بالضرورة من الصلاة والزكاة والصوم والحج. وما كان على هذا النحو (لا يقدر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه، لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة)^(١).

(١) البرهان: الزركشي ص: ٣٠٧

المطلب الثالث

التفسير الذي يفهمه العلماء

إما تأويلا وهو المعروف بالاستنباط في اصطلاح العلماء، وإما تفسيرا بما يوجبه نقل من تنزيل أو من حديث صحيح. وعليه قالوا: إن المفسر ناقل، والمؤول مستنبط لما غلب على فعله من استنباط لحكم، أو لطيفة أو بديعة، أو بيان لمجمل، أو تخصيص لعام، أو تقييد لمطلق، أو إطلاق لمقيد، وهكذا.

ولفظٌ كان محتملا لمعنيين وجب حملة على الأظهر منهما ما لم تقم قرينة على حملة على الآخر الخفي.

واللفظ الجلي إذا كانت له حقيقتان إحداها لغوية والأخرى شرعية فيجب حملة على الوجه الشرعي منهما إذ هو مراد الشارع ابتداء.

وأما إذا اتفق استعمال لفظ ما على حقيقته اللغوية والشرعية معا فيحمل اللفظ على اجتهاد المفسر. خاصة إذا تنافيا في المعنى كما في لفظ القرء. وإذا كان المراد منه حقيقة الطهر أو حقيقة الحيض وما يصل به اجتهاده في ذلك فهو مأجور لمظنة إرادته الحق ولمظنة موافقته كذلك. وأما إذا لم يتنافيا فيحمل عليهما معا أجل الإعجاز والفصاحة.

وإذا كان اللفظان جليين والاستعمال فيهما حقيقة. فإذا اختلف أصل الحقيقة فيهما، فيدور اللفظ بين معنيين؛ هو في أحدهما حقيقة لغوية، وفي الآخر حقيقة شرعية، فالشرعية أولى إلا أن تدل قرينته على إرادة اللغوية، نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وكذلك إذا دار بين اللغوية والعرفية، فالعرفية أولى لجريانها على اللغة، ولو دار بين الشرعية والعرفية، فالشرعية أولى لأن الشرع ألزم.

وعليه يتنزل حديث الترمذي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : (حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري حدثنا سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)^(١). على تفسير اللفظ على مقتضيات اللغة والشرع. وهذا لا يسمى رأياً لاحتياج المفسر له لضرورة الاحتياج إليه أثناء عمله في تفسير كلام الله تعالى. أو حمل اللفظ المحتمل على أحد معنياه لاحتياج ذلك إلى معرفة أنواع من العلوم: علم العربية واللغة والتبحر فيهما، ومن علم الأصول ما يدرك به حدود الأشياء، وصيغ الأمر والنهي والخبر، والمجمل والمبين، والعموم والخصوص، والظاهر والمضمر، والمحكم والمتشابه والمؤول، والحقيقة والمجاز، والصريح والكنائية، والمطلق والمقيد.

(١) قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ٢٩٥٠

المطلب الرابع

التفسير الذي لا يعلمه أحد إلا الله

وذلكم مثل ما يصدق عليه علم الغيب. وهو ما انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يشاركه أحد في ذلك، وهو من مقتضى قيوميته تعالى، وهو من براهين تفرده ومباينته سبحانه.

ومنه انفراده تعالى بعلم الساعة، وتنزيل الغيث، وعلم ما في الأرحام سعادة وشقاء لا من حيث كونه ذكراً أو أنثى! و من مثل رزق العباد، وكون أن نفساً لا تعلم ماذا تكسب غداً، أو

أن نفساً لا تعلم بأي أرض تموت. وهو ما جاء فيه قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ إِنَّ

اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ

غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]. ومنه قوله

تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[الإسراء: ٨٥]. ومنه قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]. فمن وقف عند قوله: (إِلَّا اللَّهُ) قال: المراد بالتأويل:

حقيقة الشيء، فلا يعلم حقيقة الأمور إلا الله سبحانه وتعالى. ومن وصل قال: ﴿ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾، حيث وقف عند (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) ومنه قال:

المراد هنا بالتأويل: التفسير وبيان المعنى. فإذا كان المراد بالتأويل حقيقة الشيء؛ يجب أن

تقف على (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)؛ لأن هذا لا يعلمه إلا الله.

ومنه معرفة معاني الحروف المقطعة في افتتاحيات بعض سور من القرآن المجيد. وقد بلغت تسعاً وعشرين سورة تبدأ بها. فذلكم مما اختص الله تعالى بعلمه. إذ لم يرد إلينا نص في التنزيل المجيد أو قول عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يبين معناها أو يزيل اللبس عن فحواها.

هذا... وكتطبيق على ما سلف، فقد جاءت روايات منسوبة للإمام الخبر الترجمان حسن أن أسوق ما تيسر منها وقوفا على ما أمكن أن يكون مما هو واقع في دائرة الاجتهاد وحسب. وذلك إن صحت النسبة إليه رضي الله تعالى عنه. وذلك من كونه ليس مستندا لدليل من تنزيل، أو لحديث شريف صحيح. وبعضها فيه نكارة كما سوف أشير والله تعالى الهادي.

فقد رَوَى أَبُو الضُّحَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: "الم" قَالَ: أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ، "الر" أَنَا اللَّهُ أَرَى، "المص" أَنَا اللَّهُ أَفْصَلُ. فَالْأَلِفُ تُؤَدِّي عَنْ مَعْنَى أَنَا، وَاللَّامُ تُؤَدِّي عَنْ اسْمِ اللَّهِ، وَالْمِيمُ تُؤَدِّي عَنْ مَعْنَى أَعْلَمَ. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الرَّجَّاجُ وَقَالَ: أَذْهَبُ إِلَى أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا يُؤَدِّي عَنْ مَعْنَى، وَقَدْ تَكَلَّمَتِ الْعَرَبُ بِالْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ نَظْمًا لَهَا وَوَضَعَا بَدَلَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي الْحُرُوفُ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ:

فَقُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَافُ

أَرَادَ: قَالَتْ وَقَفْتُ. وَقَالَ زُهَيْرٌ:

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرًّا فَآ... وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَا

أَرَادَ: وَإِنْ شَرًّا فَشَر. وَأَرَادَ: إِلَّا أَنْ تَشَاء.

وَقَالَ آخَرُ:

نَادَوْهُمْ أَلَا الْجَمُوعُ أَلَا تَأْتُونَ... قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُمْ أَلَا فَا^(١).

وأُسوق خبراً عجباً! أخرجه محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا رَبَّ فِيهِ﴾ فَأَتَى أَخَاهُ حَيَّيَ بْنَ أَخْطَبَ فِي رِجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا رَبَّ فِيهِ﴾ فَقَالَ أَنْتَ سَمِعْتَهُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَمَشَى حَيَّيَ بْنَ أَخْطَبَ فِي أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّكَ تَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا رَبَّ فِيهِ﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " بَلَى " فَقَالُوا جَاءَكَ بِهَذَا جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ " نَعَمْ " قَالُوا لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ، مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ نَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةَ مَلَكِهِ وَمَا أَجَلَ أَمَتِهِ غَيْرِكَ. فَقَامَ حَيَّيَ بْنَ أَخْطَبَ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمُ الْآلُفُ وَاحِدَةً، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، أَفْتَدْخُلُونَ فِي دِينِ نَبِيِّ إِغْمَا مَدَّةَ مَلَكِهِ وَأَجَلَ أَمَتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ فَقَالَ " نَعَمْ "، قَالَ مَا ذَاكَ؟ قَالَ " الْمَص " قَالَ هَذَا أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْآلُفُ وَاحِدٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، وَالصَّادُ سَبْعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَةٌ سَنَةً. هَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدُ غَيْرُهُ؟ قَالَ " نَعَمْ "، قَالَ مَا ذَاكَ؟ قَالَ " الر " قَالَ هَذَا أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْآلُفُ وَاحِدَةً، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ سَنَةً. فَهَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدُ غَيْرُهُ؟ قَالَ " نَعَمْ " قَالَ مَاذَا؟ قَالَ " الم " قَالَ هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْآلُفُ وَاحِدَةً، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ. ثُمَّ قَالَ لَقَدْ لَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى مَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أَعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا؟ ثُمَّ قَالَ قَوْمُوا عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١ / ١٥٥

أبو ياسر لأخيه يحيى بن أخطب ولمن معه من الأخبار ما يدريكم لعله قد جمع هذا
 لمحمد كله إحدى وسبعون، وإحدى وثلاثون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى
 وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين؟ فقالوا لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون
 أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
 الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن هذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو
 ممن لا يحتاج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل
 حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت
 مع التكرار فأظم وأعظم، والله أعلم^(١).

وذكر الإمام ابن حجر أن هذا باطل لا يعتمد عليه، لأنه ثبت عن ابن عباس - رضي
 الله عنه - الزجر عن عد أبي جاد. والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر^(٢).

قال في الإتيان: (وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد، ولا أعرف أحداً يحكم عليها
 بعلم ولا يصل منها إلى فهم)^(٣).

وقد نقل السيوطي عن ابن عباس رضي الله عنه أنها حروف مقطعة كل حرف منها
 مأخوذ من إسم من أسمائه تعالى، ففي قوله في ﴿الرَّ ۝﴾ قال: معناها (أنا الله أعلم)،
 وفي قوله: ﴿الْمَصَّ ۝﴾: (أنا الله أفصل)، وفي قوله: ﴿الرَّ ۝﴾ قال معناها: (أنا الله أرى)
 ﴿الْمَصَّ ۝﴾: الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد. و ﴿قَ ۝﴾: حرف
 من اسمه قادر، ﴿نَ ۝﴾: إنه مفتاح اسمه نور وناصر^(٤).

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ١ / ٤١

(٢) الإتيان، السيوطي: ١٣/٢

(٣) المرجع السابق: ٦١٧

(٤) المرجع السابق: ٩

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنها قسم أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه.

وتوجه بأنه لا يصح أن تكون قسما؛ لأن القسم معقود على حرف مثل (إن، وقد، ولقد، وما) وثمة حرف منها لم يوجد فدل على عدم جواز كونه قسما.

ورد بأن موضع القسم في سورة البقرة (لا ريب فيه) كما أنه لو حلف إنسان فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان قسما وتكون (لا) جواب القسم.

وذكر الزمخشري أن حرف القسم مضمّر كأنه أقسم بهذه السورة وبالكتاب المبين إنا جعلناه^(١).

وَتُوْجِّهَ بأنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن الحروف المقطعة كانت لها مدلولات في لغتهم لكانوا أسرع إلى إنكار ذلك على الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع علمهم بفصاحة الكلام وبلاغة البيان. ذلك أنه لما قرأ عليهم أمثالها ما أثبت التاريخ شيئا عنهم يُحَاجُّون به نبي الله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وأقول: ليس شرطا أن يأتي القرآن بكل ما كان معروفا عند العرب خاصة فيما استأثر الله تعالى بعلمه ليكون علما على الإعجاز، منضافاً إلى ما عرفوه من كونه نزل بلسانهم جملةً.

سؤاله أهل العلم

ولم يكن ابن عباس في معزل عن سؤال غيره من أهل العلم من الصحابة الكرام في عهده عما قد أشكل عليه من معاني القرآن العظيم. مما يمكن أن نعهده منهجا آخر له التفسير. مقتضاه سؤال غيره عما عرض له من كتابه تعالى القرآن العظيم.

(١) تفسير الكشاف: ج ١/ ٣٦

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال لم أزل حريصا على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما حتى حج وحججت معه وعدلت معه بإداوة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ فقلت له يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما قال واعجبا لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة.

ثم استقبل عمر الحديث يسوقه قال كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره وإذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصخبت على امرأتي فراجعني فأنكرت أن تراجعني قالت ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني ذلك وقلت لها قد خاب من فعل ذلك منهن ثم جمعت علي ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكي لا تستكثري النبي صلى الله عليه وسلم ولا تراجعيه في شيء ولا تهجره وسليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد عائشة قال عمر وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فرجع إلينا عشاء فضرب بابي ضربا شديدا وقال أثم هو ففزعت فخرجت إليه فقال قد حدث اليوم أمر عظيم قلت ما هو أجاء غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه وقال عبيد بن حنين سمع ابن عباس عن

عمر فقال اعتزل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مشربة له فاعتزل فيها ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت ما يبكيك ألم أكن حذرتك هذا أطلقكن النبي صلى الله عليه وسلم قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً ثم غلبنى ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لغلام له أسود استأذن لعمر فدخل الغلام فكلم النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع فقال كلمت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرتك له فصمت فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فجئت فقلت للغلام استأذن لعمر فدخل ثم رجع فقال قد ذكرت لك له فصمت فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم رجع إلي فقال قد ذكرت لك له فصمت فلما وليت منصرفاً قال إذا الغلام يدعوني فقال قد أذن لك النبي صلى الله عليه وسلم فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله أطلقت نساءك فرفع إلي بصره فقال لا فقلت الله أكبر ثم قلت وأنا قائم أستأنس يا رسول الله لو رأيته وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت يا رسول الله لو رأيته ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد عائشة فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيته في بيته شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً فقال أوفي هذا

أنت يا ابن الخطاب إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة يا رسول الله إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعتها عدا فقال الشهر تسع وعشرون ليلة فكان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة قالت عائشة ثم أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه فاخترته ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة^(١).

والشاهد: قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب).

وإنما سقت الحدث السابق بطوله لفائدته، ثم كونه في صحيح البخاري دلالة على صحته في الاستناد إلى اعتبارنا سؤال الخبر الإمام الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما غيره منهجا له في التفسير لنسيرة سيرته نحذو حذوه، والله الكريم.

والحاصل من كل ما يمكن أن نقف عليه من خوفهم من الخوض في كلامه تعالى رغم تضلعهم بالعربية فكان القول إذن من اجتناء الخبر الترجمان ابن عباس للقيام بتيكهم مهمة من عظيم اختيارات الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

(١) البخاري، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها: ٤٨٩٥

الفصل الثالث

نُطَبِيقَاتُ فِيهِ الْمَنْهَجِ

بعد طواف طال أمدّه لزم إيضاح تطبيقات نبين منها تنزيلاً لمعالم المنهج عند الإمام الحبر
الترجمان؛ لنفيد فيها كيفية النحو بكلامه تعالى نحواً يرضاه بعيداً عن شطط أو قريباً من
لبس. وذلكم كيما تتألف صورة أراها لازمة حول بيان المنهج من خلال نصوص
ووقفات ومن آيات محكمات وأخر متشابهات أدلى في كل منها بدلوه الكريم حتى ترك
لنا سفراً واسعاً مداه في تفسير كلام الله سبحانه وتعالى في علاه .

وسوف أشير في ذلك عدة إشارات من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

أولاً: ابن عباس والخوارج: تفسير القرآن بالقرآن

وإنما عنونت لهذا الدرس بما ذكر دلالة على التاريخ ووقوفاً على عرف وانتهاجاً لعادة.

لكن الأصل أن هذه المسألة إنما سيقّت للاستدلال على كيفية تعامل الإمام الخبر
الترجمان مع نصوص القرآن الحكيم ليخرج لنا منها اللآلئ ولنستقي منه دررها تبعاً!
وكيف أنه رضي الله تعالى قد وهب ملكة تفسير القرآن بالقرآن على نحو كهذا إن أثار
عجبا فقليل وإن استدار بهيئته ليدهش فقليل أيضاً!

وانظر إلى حوار مع الخوارج لتخرج بما خرجت به من سعة علم نافذ أدحض الخصم،
وأظهر الحق، وأبطل الله تعالى به الباطل حتى، وقد انصرف الناس من حوله مطمئنين
إلى صحة مذهبه مقتنعين بفساد مذهبهم. وهذه مكاسب العلم النافع والعمل الصالح
معا. والله تعالى هو الموفق لكل علم نافع والهادي إلى كل عمل صالح.

وأسوق القصة بتمامها لتعلقها بمنهج رضي الله تعالى في تفسير كلام الله تعالى والتوجه
بالنص سهلاً يسيراً دونما عسف أو اجتراء. وكان من ذلك ما نتج عنه ما أشاح الله تعالى
به كيد الشيطان دفاعاً منه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى. ثم ما
حفلت به ذاكرة الخبر الترجمان من ملكة استحضار لاستدلال عميق بآيات الله تعالى في
القرآن المجيد. وكيف كان توظيفها للرد على كل مدع دعوى، ولكل ذاهب مذهباً. ثم لما
لها من عموم فائدة من التاريخ، وكيف يمكن أن توظف الأحداث قضاء على الفتن في
مهداها كيما لا يمتد شررها فتصيب كل مار، وتحرق بنيرانها كل قاصد.

هذا؛ فضلاً عما لها من استدلال يرتكن إليه في تفسير كلام الله تعالى بالقرآن نفسه.
وتلك شامة الخبر الإمام، وكيف أوتي حصافة قبل أن كان قد أوتي علماً!

فعن عكرمة بن عمار العجلي ثنا أبو زميل سماك الحنفي ثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (لما خرجت الحرورية اعتزلوا في دار، وكانوا ستة آلاف فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة، لعلي أكلهم هؤلاء القوم. قال: إني أخافهم عليك قلت: كلا، فلبست، وترجلت، ودخلت عليهم في دار نصف النهار، وهم يأكلون فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس، فما جاء بك؟ قلت لهم: أتيتكم من عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين، والأنصار، ومن عند ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون، فانتحى لي نفر منهم قلت: هاتوا ما نقيتم على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه قالوا: ثلاث قلت: ما هن؟ قال: أما إحداهن، فإنه حكم الرجال في أمر الله وقال الله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ما شأن الرجال والحكم؟ قلت: هذه واحدة. قالوا: وأما الثانية، فإنه قاتل، ولم يسب، ولم يغنم، إن كانوا كفاراً لقد حل سباهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سباهم ولا قتالهم، قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ وذكر كلمة معناها قالوا: محي نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين. قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا. قلت: لهم رأيكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه، وسنة نبيه ما يرد قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه رأيتم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

وكان من حكم الله أنه صيره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل

أو في أرنب؟ قالوا: بلى، هذا أفضل وفي المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة؟ خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يسب، ولم يغنم. أفتسبون أمكم عائشة، تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلت: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلت: ليست بأما فقد كفرتم: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، وأما محي نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون. إن نبي الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي: اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: امح يا علي اللهم إنك تعلم أنني رسول الله، امح يا علي، واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم خير من علي، وقد محى نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم، فقتلوا على ضلالتهم، فقتلهم المهاجرون والأنصار^(١).

ثانياً: نماذج من منهج تأويله للقرآن الحكيم

وغني عن البيان أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان قد أولى عناية كريمة بفصل تأويل كلام الله تعالى بتنزيل منه يبين معناه، ويكشف عما يمكن أن يكون منهجاً أولياً له في ذلكم الجانب الأهم من منهج التفسير لأي الذكر الحكيم.

(١) النسائي والحاكم والبيهقي وصححه ابن تيمية في منهاج السنة وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

فجاء عنه رضي الله تعالى عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِنَّمِ وَالْفَوْحِشِ إِلَّا اللَّهَ﴾ [النجم: ٣٢] قال: قال النبي: إن تغفر اللهم تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألماً^(١).

وقال رضي الله تعالى عنه: وجهني على بن أبي طالب إلى ابن الكواء وأصحابه وعلي قميص رقيق وحلة فقالوا لي: أنت ابن عباس وتلبس مثل هذه الثياب؟ ! فقلت: أول ما أخاصمكم به، قال الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، و ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾، وكان رسول الله يلبس في العيدين بردي حبرة^(٢).

وجاء عنه رضي الله تعالى عنه (أن النبي كان إذا عصفت الريح؛ يجثو على ركبتيه ويقول: اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً)) قال ابن عباس: والله إن تفسير ذلك في كتاب الله، يقول الله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، و ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، و ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦] و ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]^(٣).

وقال رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله: (لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق، ولا منان) قال ابن عباس: فشق ذلك علي لأن المؤمنين يصيبون ذنوباً، حتى وجدت ذلك في كتاب الله؛ في العاق: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] الآية، وفي المنان: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] الآية، وفي الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى قوله: ﴿فَلَجَّئِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]^(٤).

(١) الترمذي في الجامع: ٣٢٨٤

(٢) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٣ / ٧٩

(٣) الطبراني في الكبير: ١١١٧٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات، إلا أن عتاب بن بشير لم أعرف له من مجاهد سماعاً ﴿مجمع الزوائد ٥/ ٧٤ / ٨٢١١﴾.

(٤) ابن ماجة في السنن: ٢٦٣٢، وابن أبي حاتم في التفسير ٦/ ١٨٤٥: (١٠٠٠٥)، والطبري في جامع البيان ١٤/ ٣٦٧ (١٦٩٨٣)، وضعفه الألباني

وجاء عنه رضي الله تعالى عنه (أن النبي جعل الدية اثني عشر ألفاً) فذلك قوله: ﴿وما
نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾، قال: بأخذ الدية^(١).

عن ابن عباس، أنه طاف مع معاوية بالبيت، فجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال
له ابن عباس: ﴿لم تستلم هذين الركنين؟ ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم
يستلمهما﴾، فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجورا، فقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فقال معاوية: صدقت^(٢).

ومما سبق من ذكر قصته رضي الله تعالى عنه مع الخوارج، وما ذكر مما ورد عنه من
أقوال في تفسير كلام الله تعالى لبعض آيات كما أوردت سلفا يمكننا أن نطلع بيسر على
منهجه في تفسير القرآن بالقرآن. لكنها ملكة قبل أن تكون آلة! والله تعالى هو الموفق،
وهو سبحانه الهادي إلى تصريف قلوب عباده نحو فهم كلامه سبحانه.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٦٩ (١٨٧٧)، والطحاوي في شرح المعاني ٢/ ١٨٤، وقال محققو المسند: ﴿حسن لغيره﴾.

(٢) مسند أحمد: ١٨٧٧

المطلب الثاني: تفسير القرآن بالسنة عند ابن عباس

أفردت هذا المبحث مستقلاً للكلام حول تفسير الإمام الخبر الترجمان للقرآن الكريم بحديث سيد المرسلين وخاتم النبيين.

وكنت أعلم أن ذلكم يمثل إضافة وكشفاً لا إنشاءً. ذلك أن قول الصحابي يعتبر في حكم الرفع، إذا كان في القرآن الكريم؛ لأنه مما اتفق عليه أن مثل ذلك لا يرويه أحدهم إلا إذا كان مأخوذاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ لأن مثله لا يؤخذ بالرأي. وصحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم منزهون دينا عن أن يقولوا في كتاب ربهم برأيهم.

وثمة جانب آخر؛ أنني قد ذكرت في هذه الدراسة غير مرة كثيراً مما ورد عنه رضي الله تعالى عنه في مسائل التفسير، والأصل أنه أخذها عن وحي أوحى به إلى رسول محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وليست من قوله رضي الله تعالى عنه ما لم يبين من خلال الرصد والتأمل أنها من كلامه، ولسوف يكون حينئذ مما اجتهد فيه، أو مما كان للغة فيه نصيب.

وثالث القول أنني سأورد بضعا مما ورد عنه رضي الله تعالى عنه نصا في إسناد ما جاء عنه تفسيراً لكلام الله تعالى بسنده إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إبرازاً لاهتمامه بمسائل التفسير من ناحية واهتماماً بأخذه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من ناحية أخرى.

فأقول وبالله تعالى التوفيق ومنه السداد: إقرار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِّرِينَ﴾ في شأن رجلٍ أذنب ذنباً.

فقال الرجل: يا رسول الله، أهى في خاصة، أو في الناس عامة؟

فقال عمر: (لا، ولا نعمة عين لك، بل هي للناس عامة).

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «صدق عمر»^(١).

وجاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن طاووس بن كيسان، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه».

فهذا الحديث فيه ليس فيه نصّ على لفظ اللمم، لكن فهم منه ابن عباس معنى اللمم.

وفي صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي من حديث ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: " لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه؛ فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله! أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا؟ يعدّ أيامه.

قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم حتى إذا أكثرتُ قال: أخر عني يا عمر! إني خيرت فاخترت وقد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، لو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت».

قال: ثم صلى عليه ومشى معه؛ فقام على قبره حتى فرغ منه.

قال: فعجب لي وجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله أعلم؛ فو الله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ سُلُوكٌ﴾

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن عمر.

عَلَى قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ قال: فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله).

ومنه ما جاء عنه رضي الله تعالى عنه رواية لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تحريماً للخمر: حدثنا أبو العباس، أنبأ محمد بن عبد الله، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن حسين الزيادي، أن مالك بن سعد التجيبي، حدثه أنه سمع عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما يقول: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وباعها ومبتاعها وساقها ومسقاها^(١).

(١) المستدرک علی الصحیحین « کتاب الأطعمة ٧٣١١ » إن الله لعن الخمر وشاربها. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

المطلب الثالث: ابن عباس والناسخ والمنسوخ

ومنه منهجه رضي الله تعالى عنه لزوم معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم. كما يتأتى تفسير كلام تعالى بناء على معرفة هذا الباب. ومنه سار على هديه في ذلك أكابر العلماء وعامة المفسرين ممن قد انتصبوا لهذا العلم الكريم.

فعن الضحاك بن مزاحم قال مر ابن عباس رضي الله عنهما بقاض يقضي فركضه برجله قال أتدري ما الناسخ من المنسوخ قال ومن يعرف النسخ من المنسوخ قال وما تدري ما الناسخ من المنسوخ؟ قال لا قال هلكت وأهلكت^(١).

والرواية وإن كانت من طريق الضحاك بن مزاحم^(٢). وهو في المرتبة الثالثة من الرواة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اشتهروا بالرواية عنه إلا أنها يمكن أن يكتب لها القبول تأسيساً على أن هذا منهج المفسرين عموماً في وجوب معرفة الناسخ والمنسوخ كما تخرج آيات القرآن الكريم تخريجاً صحيحاً بعيداً عن مسلك احتجاج بها في غير رمية.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلِيٌّ أَفْضَاَنَا وَأَبِيٌّ أَفْرَوْنَا وَإِنَّا لَنَدْعُ كَثِيرًا مِنْ لَحْنِ أَبِيٍّ وَأَبِيٌّ يَقُولُ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا أَدْعُهُ لِشَيْءٍ وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا^(٣).

(١) الناسخ والمنسوخ - ابن حزم: ٦

(٢) قال الدكتور محمد حسين الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ٥٥): (طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس، وهي غير مرضية لأنه وإن وثقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢٠١٧٢

وَقَالَ أَيْضاً: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سُلَيْمٌ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: جَهَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ فَلَمْ أَعْلَمْهُ، وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ سورة البقرة آية ٢٦٩، قَالَ: الْمَعْرِفَةُ بِالْقُرْآنِ نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، وَمُحْكَمِهِ، وَمُتَشَابِهِهِ، وَمُقَدَّمِهِ، وَمُؤَخَّرِهِ، وَحَرَامِهِ، وَحَلَالِهِ، وَأَمْثَالِهِ^(١).

ومنه نعرف كيف كانت المهمة الملقاة على قائم بتفسير كلام الله تعالى جد مهمة. هذا فضلا عما مثلته من قيمة عند الإمام الخبر الترجمان حتى ترك لنا كنزا يكون سندنا لكل باحث وعونا لكل دارس. ومقدمة حسن الكلام فيها عن النسخ لبيان معناه وطرائقه وشروطه وأنواعه. وسوف يكون جل ما أستشهد به من بتطبيقات عن الإمام الخبر الترجمان في هذا الباب. لأبين منهجه رضي الله تعالى عنه في هذا الشأن.

تعريف النسخ لغة: ومعنى النسخ على قسمين: نسخ إزالة، ونسخ نقل.

القسم الأول: نسخ الإزالة: وهو كما قال ابن منظور رحمه الله تعالى في لسان العرب: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه؛ وفي التنزيل: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها؛ والآية الثانية ناسخة والأولى منسوخة^(٢).

وقال ابن الأعرابي: النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، ونسخ الآية بالآية: إزالة مثل حكمها. والنسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو^(٣).

ونسخ الشيء بالشيء ينسخه وانتسخه: أزاله به وأداله؛ والشيء ينسخ الشيء نسخاً أي يزيله ويكون مكانه^(٤).

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي: ١٧

(٢) المعجم الإسلامي: ٢١٣١

(٣) الفراء وأبو سعيد: المصدر السابق ٢١٣١

الليث: النسخ أن تزيل أمراً كان من قبل يُعمل به ثم تنسخه بجادث غيره^(١).

الفراء: النسخ أن تعمل بالآية ثم تنزل آية أخرى فتعمل بها وتترك الأولى. عن إبطال شيء وإقامة آخر مقامه^(٢).

وقال أبو حاتم الأصل في النسخ هو أن يحول العسل في خلية والنحل في أخرى^(٣).

وفي الحديث ما من نبوة إلا وتنسخها فترة^(٤).

ونسخ الإزالة على سبيلين:

أحدهما: نسخ إلى بدل. نحو قولهم نسخ الشيب الشباب

وثانيهما: نسخ إلى غير بدل ورفع الحكم وإبطاله دون إقامة بديل له. ومنه قولهم: نسخت الريح الديار أي أبطلتها وأزالتها.

القسم الثاني: النسخ بمعنى النقل: فكما قال ابن منظور رحمه الله تعالى أيضاً: نسخ الشيء ينسخه نسخاً وانتسخه واستنسخه: اكتتبه عن معارضه.

التهذيب: النسخ اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف، والأصل نسخة، والمكتوب عنه نسخة لأنه قام مقامه، والكاتب ناسخ ومنتسخ^(٥).

والاستنساخ: كتب كتاب من كتاب؛ وفي التنزيل: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]. قال القرطبي: قال ابن عباس: وهل يكون النسخ إلا من كتاب^(١).

(١) المصدر السابق ٢١٣١

(٢) المصدر السابق ٢١٣١

(٣) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري: ١١٦

(٤) الناسخ والمنسوخ ابن حزم: ٦

(٥) لسان العرب، لابن منظور: ١٥-١/٣

أي نستنسخ ما تكتب الحفظة فيثبت عند الله. فنأمر بنسخه وإثباته.

وكان ابن عباس يقول: من لم يعرف الناسخ والمنسوخ خلط^(٢).

والنسخ في القرآن هو إبطال الحكم مع إثبات الخط وهو في السنة كذلك.

تعريف النسخ اصطلاحاً: والنسخ في اصطلاح المتقدمين معناه: البيان. فيشمل تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، ورفع الحكم بجملته وهو ما يعرف - عند المتأخرين - بالنسخ. أو أن تكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة إلا أن المنسوخة لا يعمل بها. مثل عدة المتوفى عنها زوجها حيث كانت سنة فنسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وحده: بيان انتهاء مدة العبادة. وقيل انقضاء العبادة التي ظاهرها الدوام. وقال بعضهم أنه رفع الحكم بعد ثبوته.

وأما شرائطه:

أن يكون النسخ بخطاب. إذ إنه بموت المكلف يكون الحكم منقطعاً. والموت مزيل للحكم لا ناسخ له.

أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً. إذ الأمور العقلية التي منشؤها البراءة الأصلية لم تنسخ، وإنما ارتفعت بإيجاب العبادات.

(١) تفسير القرطبي

(٢) موسوعة عبد الله بن عباس: ج ٧ / ٤٦١ - ٤٨٠

أن لا يكون الحكم السابق مقيداً بزمان مخصوص. كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: (لا صلاةَ بعدَ الصُّبحِ حتى تطلعَ الشمس، ولا صلاةَ بعدَ العصرِ حتى تغيبَ الشمس) ^(١). واللفظ له.

فإن الوقت الذي يجوز فيه أداء النوافل التي لا سبب لها مؤقتة. فلا يكون نهيه عن هذه النوافل في الوقت المخصوص لما قبل ذلك من الجواز لأن التوقيت يمنع النسخ ^(٢).

أن يكون الناسخ متراحياً عن المنسوخ، وبيان النسخ منتهى الحكم، لتبدل المصلحة على اختلاف الأزمنة. وذلك كالتوجه إلى بيت المقدس بمكة وهو اختيار اليهود، وكإيجاب التصديق بالفضل عن الحاجة في الابتداء لنشاط القوم في الصفاء والوفاء، وكتقدير الواجب بربع العشر الفاضل إلى الانتهاء تيسيراً للأداء وصيانة لأهل النسخ من الإباء ^(١).

أنواع النسخ

والنسخ ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم: ومنه كما عند الإمام مسلم رحمه الله تعالى قال: (بَعَثَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُ مِئَةٍ رَجُلٍ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَأُوهُمْ، فَاثْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُوا قُلُوبَكُمْ، كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ، كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشَّدَّةِ بِبَرَاءَةٍ، فَأَنْسَيْتُهَا، غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى وَادِيَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ، كُنَّا نُشَبِّهُهَا

(١) البخاري: ٥٨٦

(٢) الناسخ والمنسوخ، ابن حزم: ٧

بِإِخْدَى الْمُسَبِّحَاتِ، فَأَنْسَيْتُهَا، غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، فَتَكْتُبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ، فَتَسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢).

النوع الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم: كما أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه {لَقِيتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يُحْكُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَيَقُولُ: إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنَ الْقُرْآنِ فَلَا تَجْعَلُوا فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ قَالَ أَبِيُّ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَنَا فَنَحْنُ نَقُولُ كَمْ تَعْدُونَ سُورَةَ الْأَحْزَابِ مِنْ آيَةٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ قَالَ أَبِيُّ: وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ إِنْ كَانَتْ لَتَعْدِلُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلَبَّتَهُ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١).

والشيخ هو المحسن والشيخة هي المحصنة.

النوع الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة: ومنه أمر القبلة بأن المصلي يتوجه حيث شاء لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ ۝﴾ [البقرة: ١١٥]. فنسخ ذلك والتوجه إلى بيت المقدس بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٤٤].

ومنه قول ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ ۚ﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

(١) المصدر السابق: ٧

[٢٢٧]. مما ينبئ عن مدى معرفته بمسألة النسخ والمنسوخ كأصل لازم لمن تجشم التعرض للقرآن الكريم تفسيراً.

ومن النسخ إطلاقه على تخصيص العام: ففما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧]. ثم نسخ واستثنى من ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور: ٢٩].

قال ابن الجوزي^(١): (وهذا تخصيص لا نسخ)^(٢).

ومنه إطلاقهم النسخ على تقييد المطلق:

مثاله: ما روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨] أنه ناسخ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْنَا لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال الشاطبي: وعلى هذا التحقيق تقييد لمطلق؛ إذ كان قوله: (نؤته منها) مطلقاً ومعناه مقيد بالمشيئة، وهو قوله تعالى: (لمن نريد) وإلا فهو إخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ^(٣).

ومنه إطلاقهم النسخ على تبين المبهم: ومنه ما جاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]. من أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ

(١) ت: ٥٩٧ هـ

(٢) المصنفى بألف أهل الرسوخ: ٤٥

(٣) الموافقات: ٣ / ٨١ - ٨١

شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَافِي الْجُمُعَاتِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: ٤١]. وإنما ذلك بيانٌ لمبهم في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأما قول من قال: الآية التي في سورة الأنفال ناسخة الآية التي في سورة الحشر فلا معنى له، إذ كان لا معنى في إحدى الآيتين ينفي حكم الأخرى. وقد بينا معنى النسخ، وهو نفي حكم قد ثبت بحكم خلافه^(١).

ومنه إطلاق النسخ على نقل حكم الإباحة الأصلية إلى حكم جديد:

ومنه: ما جاء في تحريم الخمر: قال القرطبي رحمه الله تعالى: وروى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تُسْمِعُوا النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا ﴿٤٣﴾ [النساء: ٤٣]. و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ [البقرة: ٢١٩]. نسختها التي في المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]﴾^(٢).

إبطال دعوى النسخ:

هذا؛ وقد ذهب بعض العلماء إلى إبطال دعوى النسخ. وأسسوا قولهم هذا على ما سبق من كون أن تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المبهم، ونقل حكم الإباحة الأصلية

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ١٠ / ٤

(٢) تفسير القرطبي عند تفسير آية المائدة ٩٠

إلى حكم جديد. كل ذلكم ليس يسمى نسخاً بقدر ما يسمى باسمه كقواعد أصولية وحسب.

(إن قضية النسخ كلها دعوى ضالة ومضلة)^(١).

(إن من البلايا التي حلت بهذه الأمة عبر تاريخها المديد هو ظهور نابذة نسخ القرآن الكريم وإبطال آياته)^(٢).

(ليس في السنة دليل على النسخ في القرآن: لا إجماع على النسخ)^(٣).

وسبق قول ابن الجوزي: (وهذا تخصيص لا نسخ)^(٤).

(١) منهج قراءة التراث الإسلامي بين منهج قراءة التراث الإسلامي: بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين: أبو جميل الحسن: دار

الكلمة للنشر والتوزيع: ٢٠١٢: ص ١٥٥

(٢) أَوْجُهُ الْبَيَانُ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنِ: عَدْنَانُ الْغَامِذِي

(٣) مفاهيم جهادية.. بحاجة لتصحيح: الجدل حول آية السيف: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة: العلامة الشيخ الدكتور يوسف

القرضاوي

(٤) المصنفى بأكف أهل الرسوخ: ٤٥

المطلب الرابع: ابن عباس وأسباب النزول

إن أسباب النزول مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلوم القرآن المجيد. ذلك لأنه من خلاله نعرف المقصود من الآية حسبما كانت عليه ملابسات أسباب نزولها. وذلكم لإمكان تنزيلها على وقائع قد أتت على شاكلتها أو مثلها أو يمكن أن تكون قريبة منها. بناء على ما هو مقرر في قواعد الأصول من اتحاد سبب أو اتفاق علة.

ولأسباب النزول دور عظيم في فهم مراد الله تعالى من كلامه الكريم. ومنه اهتم الإمام الحبر الترجمان بذلك أيا اهتمام لما نجده قد بين كثيرا سبب نزول الآية إبان بيانه لها.

وكان رضي الله تعالى عنه مستقصيا الأسباب والأشخاص الذين نزل فيهم قرآن وسائر ما يمس شأن النزول، وهذا من امتيازه الخاص الموجب لبراعته في التفسير. وقد مر حديث إتيانه أبواب الصحابة يسألهم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد بلغ في ذلك الغاية، حتى لنجد اسمه يدور كثيرا في أقدم مرجع بين أيدينا عن سبب النزول، وهو سيرة ابن اسحاق التي جاء تلخيصها في سيرة ابن هشام.

وكان يعرف الحضري من السفري، والنهاري من الليلي، وفيه أنزل، وفيمن أنزل، ومتى أنزل، وأين أنزل، وأول ما نزل، وآخر ما نزل.

ثم إن القول بارتباط أسباب النزول بعلم مناهج المفسرين لأمر معتبر. وذلكم من جانب أنها يمكن أن تبين لنا منهاج ذلكم العالم أو المفسر في تنزيلها أولا، أو خصوصها أو عمومها، أو إجمالها أو تفصيلها، أو إطلاقها أو تقييدها. وغير ذلك مما يرسم لنا ما يمكن أن نطلق عليه (خريطة الآية) من خلال مجموعة من العلوم المرتبطة بها؛ كيما يتسنى لنا أن نفهمها، وكيما يمكن لنا أن نستدل، أو أن نستأنس بها، أثناء قراءتنا لها، أو الاطلاع

على أقوال أهل فن علم التفسير لها. بحيث يمكن إثبات أنها لم تخرج عن مراده تعالى منها. ذلكم المراد الذي نأنس أنه مراده تعالى من تنزيل ذكره الحكيم وكتابه المبين.

بل إنه لا يتأتى لامريء قول بإمكان تفسير القرآن الكريم في معزل عن سبب النزول. ولذلك فقد نص كثير ممن كتب في علوم القرآن أبواب مناهج المفسرين ضمن سلسلة ما كتب في هذه العلوم كالإمام السيوطي رحمه الله تعالى في الإتيان.

بل إن كتباً أفردت للبحث عن دراسة علوم مناهج المفسرين ضمن مناهج علوم القرآن الكريم. ومن ذلك كتاب (أضواء على مناهج بعض المفسرين من زوايا علوم القرآن)^(١).

ومناهج المفسرين جزء من أصول التفسير، وأصول التفسير جزء من علوم القرآن. ومنه أسباب النزول.

ومنه أيضاً يؤكد على ما لأسباب النزول من دور عظيم في فهم معاني القرآن، فإذا كانت الآية تنزل لمناسبة خاصة و لعلاج حادثة وقعت لوقتها، فإنها حينذاك ترتبط معها ارتباطاً وثيقاً ولولا الوقوف على تلك المناسبة، لما أمكن فهم مرامي الآية بالذات.

ومنه لزم عند التعرض لتفسير كلامه تعالى أن يُتنبه إلى ذكر سبب نزول الآية وعما إذا كان مقصوداً بها واقعة بعينها، أو شخصاً بذاته، أو أن حكمها يبقى عاماً لكل من اتحدت علته مع سبب نزولها.

ومنه بانت أهمية دراسة أسباب النزول كمنهج للمفسر ومنه أيضاً لزم بيان منهج ابن عباس في ذلك. لإدراك معاني الكتاب ولمعرفة مرامي ألفاظه معاً، وعما إذا كان نزولها لسبب خاص أو أنها شاملة للمعنى الخاص ويدخل فيها كل عام؟

(١) أضواء على مناهج بعض المفسرين من زوايا علوم القرآن لعبد الحميد متولي.

ومنه ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمَرَأَتَيْنِ مِنَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ لهما: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]. فَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَعَدَلْتُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّرْتُ حَتَّى جَاءَ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنِ الْمَرَأَتَانِ مِنَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لهما: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]؟ فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرُ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ وَجَارًا لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاقَبُ التَّزْوُلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ، وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَعْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ نَعْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذُونَ مِنَ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ، فَصَبَحْتُ عَلَى امْرَأَتِي، فَرَاَجَعْتَنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَ اللَّهُ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيرَاجِعْنَهُ، وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ، فَأَفْزَعَنِي، فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ بَعْظِيمٌ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَيُّ حَفْصَةَ أَتُعَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: خَابَتْ وَخَسِرَتْ أَقْتَامُنْ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِعُضَبِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَهْلِكِينَ لَا تَسْتَكْثِرِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا تَهْجُرِيهِ، وَاسْأَلِينِي مَا بَدَأَ لَكَ، وَلَا يَعْرِتُكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضًا مِنْكَ، وَأَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرِيدُ عَائِشَةَ - وَكُنَّا تَحَدَّثُنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النَّعَالَ لِعَزْوِنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً، فَضْرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: أَنَايُ هُوَ، فَفَزِعْتُ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، قَالَ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ،

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ، فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ، فَاعْتَزَلَ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، قُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَوَلَمْ أَكُنْ حَدَّثْتُكَ، أَطْلَقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: لَا أَدْرِي هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُبَةِ، فَخَرَجْتُ، فَجِئْتُ الْمِنْبَرَ، فَإِذَا حَوْلَهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَحْدُ، فَجِئْتُ الْمَشْرُبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَقُلْتُ لِعَلَّامٍ لَهُ أَسْوَدَ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ، فَصَمَتَ، فَأَنْصَرَفْتُ، حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَحْدُ، فَجِئْتُ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَحْدُ، فَجِئْتُ الْعَلَّامَ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا، فَإِذَا الْعَلَّامُ يَدْعُونِي قَالَ: أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِيٌّ عَلَى وَسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشَوُهَا لَيْفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: لَ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: اسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى قَوْمٍ نَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَذَكَرَهُ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُلْتُ: لَوْ رَأَيْتَنِي، وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: لَا يَعْرِتُكَ أَنْ كَأَنَّ جَارَتِكَ هِيَ أَوْضَأُ مِنْكَ، وَأَحَبُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرِيدُ عَائِشَةَ -، فَتَبَسَّمَ أُخْرَى، فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْبَةِ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَيَّ أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطَوْا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَكِيًّا فَقَالَ: أَوْفِي شَكَّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، فَاعْتَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ، وَكَانَ قَدْ قَالَ: مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةٍ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ، حِينَ عَابَهُ اللَّهُ فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَبَدَأَ بِهَا، فَقَالَتْ لَهُ: عَائِشَةُ إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ

عَلَيْنَا شَهْرًا، وَإِنَّا أَصْبَحْنَا لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعْدُّهَا عَدًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَنْزِلَتْ: آيَةُ التَّخْيِيرِ فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تُعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ، قَالَتْ: قَدْ أَعْلَمْتُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَظِيمًا﴾ ﴿٢٧﴾ [النساء: ٢٧]، قُلْتُ: أَفِي هَذَا اسْتَأْمَرُ أَبَوَيَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ خَيْرَ نِسَاءَهُ، فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ^(١).

وفي تفسير القرطبي، قال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسال عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يمنعي إلا مهابته، فسألته، فقال: هما حفصة وعائشة^(٢).

ولقد بلغ شأوا عظيما في ذلك وبلغ من العلم به غايته كما ذكر ابن اسحاق قال: وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول، فيما بلغني: نزل فيه (النضر بن الحارث) ثمان آيات من القرآن: قول الله عز وجل: ﴿إِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ - ١٥ من سورة القلم، ١٣ من سورة المطففين). وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن^(٣).

وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثت عن ابن عباس، أنه قال: لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، قالت أحبار يهود: يا محمد، أرأيت قولك: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا إيانا تريد، أم قومك؟ قال: كلا؛ قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه

(١) صحيح البخاري: ٢٤٦٨

(٢) تفسير القرطبي: ج ٢/٢٦

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١/١٩٥

من ذلك: ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل^(١).

وقال: وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال^(٢).

وهكذا ذكرت أسباب النزول وفي الأكثر منها تسند إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن ابن أبي مليكة، أن علقمة بن وقاصٍ أخبره، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمده بما لم يفعل معدباً، لتعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموا إياه، وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أْتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]^(٣).

ومنه نعلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أوقفنا على تناولها لطائفة مخصوصة من الناس قد جاءت تبكيها لهم على سوء صنيعهم.

وبالتبع تنزل على كل قوم أو فئة أو فرد اتحدت علته مع علة ما نزلت من أجله. ذلك لأن علل الأخلاق كثيرة. من فرح بإنكار حق، أو ترح لما ينزل بالأغيار من خير أو سرور. لما يتلى به عبد من نعمة يسندها لذات نفسه، أو غير ذلك من أضرار القلوب. وإنما يعالجها مثل ذلكم نص مبين من كتاب الله تعالى الحق المبين.

(١) المرجع السابق: ج ١ / ٢٠٢

(٢) المرجع السابق: ج ١ / ٣٠٩

(٣) صحيح البخاري: ٤٥٦٨

وليس يقال إن الإمام الحبر الترجمان كان أقصر علما من أن يفهم ما قلته. ! فحاشاه أن يكون كذلك. وحاشاي أن أقصد ذلكم أيضاً. وإنما الذي أقصده أنه رضي الله تعالى عنه أراد أن يبين لنا سبب النزول ويبقى تنزيل الآية فيما بعد على من أعطاه الله تعالى فقها ويبقى عائداً إلى من آتاه الله سبحانه فإسالة علم.

وقال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى: (أخبرنا) أبو بكر بن الحارث الأصبهاني، أنبأ أبو محمد بن حيان الأصبهاني، حدثني الوليد بن أبان، ثنا يعقوب بن سفيان، ثنا سعيد بن كثير بن عفير، ثنا يحيى بن فليح أخو محمد بن فليح، عن ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعني بالأيدي والنعال والعصي، قال: وكانوا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه أكثر منهم في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو فرضنا لهم حداً فتوخى نحو ما كانوا يضربون في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان أبو بكر رضي الله عنه يجلدهم أربعين حتى توفي، ثم كان عمر رضي الله عنه من بعدهم فجلدهم كذلك أربعين حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين قد شرب فأمر به أن يجلد، فقال: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله. قال: وفي أي كتاب الله تجد أن لا أجلك؟ قال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]، شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدرًا وأحدا والخندق والمشاهد. فقال عمر رضي الله عنه: ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أنزلت عذراً للماضين وحجة على الباقيين؛ فعذر الماضين لأنهم لقوا الله عز وجل قبل أن تحرم عليهم الخمر، وحجة على الباقيين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا

وأحسنوا فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر. قال عمر رضي الله عنه: فماذا ترون؟ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نرى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة، فأمر عمر فجلد ثمانين^(١).

ومنه ما أخرجه الإمام البخاري عنه رضي الله تعالى عنه: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحٍ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكْذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ۖ ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ^(٢).

(١) سنن الترمذي: ١٦٩٨٦

(٢) صحيح البخاري: ٤٩٧٠

المطلب الخامس: ابن عباس وغريب القرآن

قال الإمام الحبر الترجمان: الشعر ديوان العرب، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه^(١).

وقال: إِذَا سَأَلْتُ مُنِي عَنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ فَالْتَمِسُوهُ فِي الشَّعْرِ فَإِنَّ الشَّعْرَ دِيْوَانُ الْعَرَبِ^(٢).

وأخرج ابن جرير عن عبيد الله بن أبي يزيد، قال: سمعت ابن عباس يسأل عن ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال: ما هاهنا من هذيل أحد فقال رجل: نعم قال: ما تعدّون الحرجة فيكم؟ قال: الشيء الضيق، قال ابن عباس، فهو كذلك^(٣).

وكان إذا سئل عن القرآن، في غريب ألفاظه، أنشد فيه شعراً.

قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير.

وأخرج الطبري عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول: ﴿تَعَالَ أَفَاتِحُ﴾، تعني: أقاضيك^(٤).

وأخرج ابن كثير عن سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما [لصاحبه]: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بديع السماوات والأرض^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي: ج ١ / ٣٤٧.

(٢) المرجع السابق: ٤٤٩

(٣) تفسير الطبري: ١٨ / ٦٨٩

(٤) تفسير الطبري: ١٤٨٥

(٥) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٣ / ٥٥٤

ونقل الزمخشري عن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول
لبنية لها: حوري، أي: ارجعي^(١).^(٣)

ولست أريد استقصاء كل ما ورد عنه رضي الله تعالى عنه في معالجة غريب القرآن من
ألفاظ فذلك مما لا يسعه بحثنا فضلا عن أنه له بسط آخر لعل الله تعالى أن يفتح يوما
فأخصه ببيان مستقل. والله الهادي والموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وهكذا كان رضي الله تعالى عنه يرجع عند ما أشكل من لفظه، إلى فصيح الشعر
الجاهلي، والبديع من كلامهم الرفيع وكان استشاده بالشعر إنما جاءه من قبل ثقافته
الأدبية البليغة واضطلاعه باللغة الأصيلة وفصيح الكلام المبين.

(١) تفسير الزمخشري: ج ٤ / ٧٢٧

المطلب السادس: ابن عباس ومسائل نافع ابن الازرق

ومنه أيضاً ما اصطلاح عليه (مسائل نافع بن الأزرق مع ابن عباس) على ما جاء في كتب الأدب كالكمال لابن المبرد وما نقل في كتب التفسير متناثراً وما جاء في كتب علوم القرآن كالإتقان للإمام السيوطي رحمه الله تعالى.

وهي مسائل تمثل - بحق - ثروة لغوية أدبية جوهريّة تعتبر عاملاً حاسماً في تفسير غريب كلمات الكتاب المبين. وبيان معاني كلمات كان للرجوع إلى أشعار العرب واعتباره أصلاً من أصول الكشف عما استكناه المعنى لذلك اللفظ أو ذاك مما خفي علمه من كتاب الله تعالى القرآن المجيد.

ومع ما ورد من اعتراضات عليها من باب صحة النسبة إليه رضي الله تعالى إلا أن فريقاً آخر من أهل العلم قد تلقاها بالقبول من باب اشتهاها من جانب، ومن باب عدم خروجها عن المؤلف من كلام العرب من جانب ثان، وغزارة هذه اللغة المجيدة الحلوة الندية حتى جاء القرآن بها ولم يأت غيرها دليلاً على نهوضها بكافة المعاني وسائر دلالات البلاغة، والبديع من القول المؤثر، والصور البلاغية التي تأخذ بتلابيب القلوب والأفئدة بحيث يكون تذوقها حال ذلك من غنائها بما سبق بيانه أولى بها عن غيرها لنزول القرآن الحكيم بها لا غيرها من جانب ثالث.

ومنه أستعين بالله تعالى مورداً قدرأ منها خدمة للكتاب الكريم وبياناً لمعاني لبعض من مفرداته التي تبدو كما أسموها أهلها (غريب القرآن).

وجعلت كتاب الإتقان للإمام السيوطي رحمه الله تعالى أصلاً لما أورد كونه متعلقاً بعلوم الكتاب المجيد القرآن الكريم. ومنه يتأتى لها قبولها، ويرسم لها منهاجها إعمالاً في المنهج، ودليلاً لمعاني الكتاب.

وليس يقال إن ذلكم احتكام إلى اللغة العربية يجعلها أصلاً في معرفة معاني الكتاب بحيث يمكن أن تكون سابقة على الكتاب نفسه، أو السنة المطهرة. وليس ذلك مقصوداً بحال. ذلك لأن الأمر لا يعدو كونه مقصوراً على ما يمكن الإشارة إليه على أنه من قبيل الألفاظ غير المشهورة وجوداً، وبالطبع إذا كانت غير مشهورة وجوداً فيكون غير مشهور معناها بالتبع من باب أولى. وذلك إضافة إلى أن الاستشهاد باللغة استثناساً أمر لاريب في أهميته عند فهم معاني كلام الله تعالى.

بيد أنها والنحو بها ذلكم منحاً إنما كان بناء على أن القرآن الكريم إنما نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وسواء كان اللفظ مشتهراً من عدمه فإن ذلك لا يخرج عن كونه عربياً. ومنه كان الاحتجاج لمعناه من ذات اللغة أمراً سائغاً ومقبولاً. ومنه أيضاً يكون لذلكم الاحتجاج قوته لما يتأتى من طريق الخبر الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنه، أو غيره من متضلعي اللغة، والمشهود لهم بذلك.

وإنما كان ابن عباس عربياً مشهوداً له بتمكنه من لغته شعراً في بدايات القول، ونشراً في نهاياته. ذلك لأنه نفسه قال (الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن - الذي أنزله الله بلغة العرب - رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه)^(١).

وإشارة إلى ما يمكن اعتباره أساساً لصحة نسبة هذه المسائل إليه رضي الله تعالى عنه كونها قد جاءت من طريق عكرمة. وهو طريق صحيح من الطرق الثلاثة الصحيحة. كونها أيضاً جاءت في المرتبة الأولى من مراتب الطرق عنه رضي الله تعالى عنه، وهي طريقة الثقات الأثبات. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند الكلام حول طرق الإسناد إليه كمنهج من مناهج التفسير عنه جعلت الاطمئنان إلى الأخذ عنه من طريقها أمراً مقبولاً تطمئن إليه نفوس المشتغلين بعلم التفسير؛ كيما توجب الاطمئنان أيضاً إلى سلامة المعنى الوارد فيها حول مفردة قرآنية في هذه السورة أو تلك.

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ٤٤٩

وأُشْرِعَ في ذكر بعض مما ورد من مسائل نافع بن الأزرق مع الخبر الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنه.

فقد أخرج السيوطي رحمه الله تعالى عن حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه، قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله - تعالى - إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ [المعارج: ٣٧]، قال العززون: حلق الرفاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول: فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيزنا. قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، قال: الوسيلة: الحاجة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنزة وهو يقول: إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي، قال أخبرني عن قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، قال: الشريعة: الدين، والمنهاج: الطريق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول: لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام ديناً ومنهجاً، قال: أخبرني عن قوله: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، قال: نضجه وبلاغه. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر: إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال: الريش المال. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: فرشني بخير طالما قد بريتني وخير الموالي من يرش ولا يبري قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، قال: في

اعتدال واستقامة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول: يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَكَاذُ سَنَا بَرْقَاهُ﴾ [النور: ٤٣]، قال: السنا: الضوء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث، يقول: يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلم، قال أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، قال: ولد الولد، وهم الأعوان قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: حقد الولا ئد حولهن وأسلمت بأكفهن أزمة الأحمال، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَحَنَّاكَ مِن دُؤَانٍ﴾ [مريم: ١٣]، قال: رحمة من عندنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت طرفة بن العبد يقول: أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الرعد: ٣١]، قال: أفلم يعلم، بلغة بني مالك. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت مالك بن عوف يقول: لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثْبُورًا﴾ [١٢]، قال: [الإسراء: ١٠٢]، قال: ملعونا محبوبا من الخير. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبد الله بن الزبير يقول: إذ أتاني الشيطان في سنة النوم ومن مال ميله مثيرا، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ [مريم: ٢٣]، قال: ألجأها. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت حسان بن ثابت يقول: إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿نَدِيًّا﴾ [٧٢]، قال: [مريم: ٧٣]، قال: النادي المجلس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويقال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَثَنًا وَرِيًّا﴾ [مريم: ٧٤]، قال: الأثا: المتاع، والرئي من الشراب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: كأن على الحمول

غداة ولوا من الرئي الكريم من الأثاث، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝﴾ [طه: ١٠٦]، قال: القاع: الأملس، والصفصف: المستوي. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: بلمومة شهباء لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذن عاد صفصفاً، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝﴾ [طه: ١١٩]، قال: لا تعرق فيها من شدة حر الشمس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول: رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَهُ خُورٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، قال: له صياح. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر: كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام صائحة تخور، قال: أخبرني عن قوله تعالى - ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝﴾ [طه: ٤٢]، قال: لا تضعفا عن أمري. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر: إني وجدك ما ونيت ولم أزل أبغي الفكاك له بكل سبيل، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿الْقَالِعَ وَالمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]؟. قال: القانع: الذي يقنع بما أعطي، والمعتر: الذي يعترض الأبواب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر: على مكثريهم حق معتر بابهم وعند المقلين السماحة والبذل، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ ۝﴾ [الحج: ٤٥]؟. قال: مشيد بالحص والآجر. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت عدي بن زيد يقول، شاده مرمرا وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور، قال: أخبرني عن قوله تعالى - ﴿سُوطٌ﴾ [الرحمن: ٣٥]؟. قال: الشواظ: اللهب الذي لا دخان له. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت: يظل يشب كيرا بعد كير وينفخ دائباً لهب الشواظ، قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١]؟. قال: فازوا وسعدوا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول لبيد بن ربيعة: فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل، قال:

أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٣], قال: يقوي. قال:
وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول حسان بن ثابت: برجال لستموا
أمثالهم أيدوا جبريل نصراً فنزل.

المطلب السابع: ابن عباس وأهل الكتاب

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها. وقال الشعبي لا تجوز شهادة أهل الملل بعضهم على بعض لقوله تعالى فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و قولوا آمنا بالله وما أنزل الآية.

وقال أيضاً: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرءونه لم يشب وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمننا قليلا أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(١).

واستشكل أنه رضي الله تعالى عنه استنكر هنا كما في رواية البخاري أن يحدث عن أهل الكتاب. وكيف له ذلك وهو يعلم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رواية عبدالله بن عمرو (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)^(٢)؟

قالوا: إن توجيه ذلك أن يكون نهى ابن عباس عن الأخذ عنهم حال كفرهم، وإلا فقد روى هو نفسه رضي الله تعالى عنه عن كعب الأحبار. كما قال ابن جرير في تفسيره: ^(٣) حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: جاء رجل إلى عبدالله، فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعبا، فقال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السموات تدور على منكب ملك،

(١) البخاري: ٢٥٣٩

(٢) تفسير ابن جرير: ٢٢٢١٢

قال: فصدقته أو كذبتة؟ قال: ما صدقته ولا كذبتة، قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها، وكذب كعب إن الله يقول: (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده).

أقول: وقوله (كذب كعب) من باب (أخطأ كعب) كقول النبي صلى الله عليه وسلم (كذب أبو السنابل)، وقول ابن عباس في نوف البكالي (كذب عدو الله)، ولهذا وثق بقية الصحابة كعباً ورووا عنه، وعلى هذا المعنى يخرج قول معاوية (وإننا لنبلو عليه بعض الكذب)... ثم إنه رضي الله تعالى عنه يقدر الرسول وستته ويعظم النبي وهديه، وهذا هو الأصل العام لدي كل مسلم. فضلاً عن القرون الثلاثة المفضلة الأولى. فضلاً عنه رضي الله تعالى عنه.

وبلغ ابن عباس أن نوماً البكالي - وهو من أصحاب كعب - يزعم أن موسى صاحب الخضر غير موسى بن عمران، فقال ابن عباس (كذب عدو الله...).

وجاء عن الطبري رحمه الله تعالى في تاريخه أنه بينا ابن عباس ذات يوم جالس إذ جاءه رجل فقال: يا ابن عباس، سمعتُ العجبَ من كعبِ الخبر، يذكرُ في الشمسِ والقمرِ. قال: وكان متكئاً فاحتفز ثم قال: وما ذاك؟ قال: زعم أنه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران، فيقذفان في جهنم، قال عكرمة: فطارت من ابن عباس شقةٌ ووقعت أخرى غضباً، ثم قال: كذب كعب! كذب كعب! كذب كعب! ثلاث مرات، بل هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام، الله أجلُّ وأكرمُ من أن يعذب على طاعته، ألم تسمع لقول الله تبارك وتعالى: ؟ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين؟ إنما يعني دءوبهما في الطاعة، فكيف يعذب عبدين يثني عليهما أنهما دائبان في طاعته؟ ! قاتل الله هذا الخبر وقبح خبرته! ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين العبدین المطيعین لله...

قال عكرمة: فقامت مع النفر الذين حدثوا به، حتى أتينا كعباً فأخبرناه بما كان من وجد ابن عباس من حديثه، وبما حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقام كعب معنا حتى أتينا ابن عباس، فقال: قد بلغني ما كان من وجدك من حديثي، وأستغفر الله وأتوب إليه، وإني إنما حدثت عن كتاب دارسٍ قد تداولته الأيدي، ولا أدري ما كان فيه من تبديل اليهود، وإنك حدثت عن كتابٍ جديدٍ حديث العهد بالرحمن عز وجل وعن سيد الأنبياء وخير النبيين، فأنا أحب أن تحدثني الحديث فأحفظه عنك، فإذا حدثت به كان مكان حديثي الأول. قال عكرمة: فأعاد عليه ابن عباس الحديث، وأنا أستقره في قلبي باباً باباً، فما زاد شيئاً ولا نقص، ولا قدم شيئاً ولا أخر، فزادني ذلك في ابن عباس رغبةً، وللحديث حفظاً^(١)!

قالوا: ويوجه أيضاً بعلمه رضي الله تعالى عنه بحديثه صلى الله عليه وسلم في النهي الصريح عن سؤالهم. كما روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى من طريق جابر بن عبد الله أن (عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أمتهكون فيها يا بن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"^(٢). وبه يحل الإشكال.

وإنصافاً فإنه رضي الله تعالى عنه حتى على القول بنقله عنهم إلا أنه كان من المقلين من ذلك إلى حد كبير حتى إنهم عندما رتبوا مراتب الأخذ عن أهل الكتاب فإنما كانت مرتبته الثالثة والأخيرة من هذه المراتب.

(١) تاريخ الطبري: ١ / ٦٥. قال الألباني: في إسناده نظر.

(٢) رواه أحمد: ٣ / ٣٨٧، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

مراتب الرواية عن أهل الكتاب

هذا، ومن حيث إن هذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: المكثرون وهم: كعب الأحبار، ثم وهب بن منبه، وابن جريج، وابن إسحاق، والسدي الكبير الكذاب حيث يعتبر أكثرهم رواية للإسرائيليات.

المرتبة الثانية: دونهم في النقل وهم: قتادة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي (وكان ثقة عالم بالتفسير).

المرتبة الثالثة: المقلون نسبياً في النقل عنهم وكان منهم: مجاهد، وابن عباس.

وابن عباس وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن مسائل العقيدة. وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك وإنما كانوا يوزنونه بميزان الجرح والتعديل الذي يعرفونه تماماً إن دراية وإن رواية. فما كان حقاً صدقوه، وما خالفه طرحوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه.

ومنه يكون الصحابة - رضوان الله عليهم - قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام (بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)، وقوله من حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ ^(١) لآية^(١). فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث

(١) صحيح البخاري: ٤٤٨٥

والأخبار، لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: "فإن فيهم أعاجيب".
والثاني محمول على ما إذا كان المُخْبَر به من قِبَلهم محتملاً، ولم يَقم دليل على صدقه
ولا على كذبه.

ثم إنه لم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد
شرعنا بوفاقه.

وليس كان يرضى ابن عباس رضى الله عنه لنفسه أن يُحدِّث عن بنى إسرائيل بما يجعله
مخالفاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس
نكيراً على ذلك، كما روى البخاري من حديثه أنه قال: (كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ
كُتُبِهِمْ، وَعِنْدَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، أَقْرَبُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبَّ. يَا
مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدُتُ الْأَخْبَارَ بِاللَّهِ، تَقْرَؤُونَهُ لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ
بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا، أَفَلَا يَنْهَاكُمُ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ
يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ^(١)).

(١) صحيح البخاري: ٢٦٨٥

المطلب الثامن: أشهر الطرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه:

هذا ولما كان يتمتع به رضي الله تعالى عنه من قبول وبما كان نسبه إلى بيت النبوة مما يكون حريا أن يكون قوله صوابا موثوقا فيه. كل ذلك جعل من شيوخ مادة الكذب عليه أمرا سائغا لدى فئة من الناس تمريرا لمذهب أو تبريرا لقول. وبما أنه كان جدا للخلفاء العباسيين مما كان له أثره في التقرب إليهم والتزلف لهم عن طريق الرواية عنه رضي الله تعالى عنه دون التثبت من صحة الرواية، ودون يقين من صدق لما نسب إليه. وتلك آفة تبتلى بها فئات من القوم على طول الزمان. عافانا الله من ذلكم.

ومنه لزم البحث عن الطرق الصحيحة للرواية عنه، وخاصة فيما كان متعلقا بتفسير كلام الله تعالى.

وقد بذل أهل العلم في ذلك جهودا مشكورة خلصت إلى بيان أشهر الطرق للرواية عنه. أسوقها كالتالي:

طريق أبو صالح عبد الله بن صالح (كاتب الليث، ضعيف)، عن معاوية بن صالح (قاضي الأندلس)، عن علي بن أبي طلحة (مرسلاً)، عن ابن عباس. وهي لا تصح بسبب الانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، فقد اتفق الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس.

قال الخليلي^(١) في الإرشاد (وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه (أي التفسير) من ابن عباس^(٢)).

(١) ت ٤٤٦ هـ

(٢) الإرشاد، الشوكاني: ٣٩٤/١

وقيل إن الإمام أحمد صحح هذا الطريق. لما رواه أبو جعفر النحاس من حديث أحمد بن محمد الأزدي قال: سمعت علي بن الحسين (مجهول) يقول: سمعت الحسين بن عبد الرحمن بن فهم (ضعيف) يقول: سمعت أحمد بن حنبل - رحمه الله - يقول (بمصر كتاب التأويل عن معاوية بن صالح، لو جاء رجل إلى مصر فكتبه ثم انصرف به، ما كانت رحلته عندي ذهب باطلا)^(١).

وأجيب بأنه لا يثبت عن الإمام أحمد. فالراوي مجهول، وأبوه ضعفه الدار قطني وهو الصواب فيه.

واختلف العلماء في عبد الله بن صالح. فمنهم من كذبه، ومنهم من ضعفه، ومنهم من صدقه.

قال أبو حاتم (الأحاديث التي أخرجها أبو صالح في آخر عمره فأنكروها عليه، أرى أن هذا مما افتعل خالد بن نجيح، وكان أبو صالح يصحبه. وكان أبو صالح سليم الناحية. وكان خالد بن يحيى يفتعل الكذب ويضعه في كتب الناس)^(٢).

وعلي بن أبي طلحة (وهو علي بن سالم بن المخارق الهاشمي) قد تكلم بعض العلماء فيه، فوثقه بعضهم وضعفه بعضهم الآخر. قال عنه أحمد بن حنبل: «له أشياء منكرات». ونقل ابن تيمية عن الإمام أحمد أنه قال (علي بن أبي طلحة ضعيف)^(٣).

ومعاوية بن صالح الحضرمي، فيه خلاف. ومن ضعفه ابن حزم^(٤).

وقد روي من هذا الطريق العديد من الآثار المنكرة عن ابن عباس. مثل القول بأن الحروف المقطعة في القرآن هي من أسماء الله عز وجل، وتأويل قوله تعالى يوم يكشف

(١) الناسخ والمنسوخ، ابن حزم: ٧٥

(٢) تهذيب التهذيب: ٢٢٧/٥

(٣) الرد على البكري: ص ٧٥

(٤) المحلى: ٧٠/٥

عن ساق، والقول بموت عيسى -عليه السلام-، والقول بعدم إبداء المرأة شعرها لأحد ولا حتى لمحارمها إلا لزوجها، والقول بالإشهاد عند الطلاق، وغير ذلك الكثير. ويروى أيضاً من هذا الطريق عن ابن عباس ما يخالف الثابت عنه من طرق أخرى صحيحة، مثل تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا اللَّحْمُ﴾، وغير ذلك أيضاً. ويروى أيضاً من هذا الطريق ما يخالف الثابت عن مجاهد وسعيد بن جبير (وهذا يرد على من زعم أنهما الواسطة).

وقد احتج بعضهم على صحة هذا الطريق باعتماد البخاري عليه في التعليق عن ابن عباس في قسم التفسير من صحيحه. وبرواية ابن جرير وابن أبي حاتم من هذا الطريق في تفسيريهما. أما البخاري فقد علق له ما شهدت به لغة العرب من المعاني، وهذا لا يشترط فيه الصدق، منها قصة نظر داود -عليه السلام- إلى المرأة وافتتانه بها وقصة هاروت وماروت». وتباكى بعضهم فقال: هل يعقل أن نضعف هذا الطريق وقد روي منه الكثير من الآثار (١٥٠٠ مرة عند الطبري)؟ فكيف نقول عن هذا كله ضعيف هكذا بكل بساطة؟ فيقال: قد روي عن ابن عباس من طريق العوفيين العدد الكبير من الآثار في كتب التفسير، جاوزت الألف وخمسمئة عند ابن جرير الطبري. ومع ذلك فهذا الطريق مجمع على ضعفه.

وجاء عن الشيخ الذهبي: طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذه هي أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه: "إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً" (١)

وقد مر بنا كيف أن هذا لا يثبت عن الإمام أحمد. لجهالة الراوي. وقد نص على ذلك المغني في الضعفاء وميزان الاعتدال ولسان الميزان.

(١) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي: ج ١/ ٢٥

٢- طريق قيس بن مسلم الجدلي الكوفي^(١) عن عطاء بن السائب بن مالك الكوفي^(٢) عن سعيد بن جبير^(٣) ومجاهد^(٤) وعكرمة^(٥) عن ابن عباس. وهذا صحيح لأن الراجح أن سماع قيس بن عطاء قديم قبل اختلاطه. أما ما رواه عنه محمد بن فضيل؛ وعمران بن عُيينة، وشريك، فهو بعد الاختلاط.

قال الشيخ الذهبي: وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخرَج منها الفريابي والحاكم في مستدركه.^(٦)

٣- طريق ابن إسحاق (صاحب السير، حسن الحديث مدلس) عن محمد بن أبي محمد (مدني مولى آل زيد بن ثابت، وهو مجهول كما ذكر ابن حجر والذهبي) عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال الذهبي: وهى طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير.^(٧)

٤- طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير (شيعي متهم بالكذب) عن أبي مالك (غزوان الغفاري الكوفي، ثقة) أو أبي صالح (بازان مولى أم هانئ، متروك اتهموه بالكذب، واعترف بذلك، ولم يسمع من ابن عباس) عن ابن عباس. وما رواه عنه أسباط فهو ضعيف

قال الخليلي (وتفسير إسماعيل بن عبد الرحمن السدي؛ فإنما يسنده بأسانيد إلى عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وروى عن السدي الأئمة مثل: الثوري، وشعبة، لكن التفسير الذي جمعه؛ رواه عنه: أسباط بن نصر، وأسباط؛ لم يتفقوا عليه)^(٨)

٥- طريق عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج عن ابن عباس. وهو ثقة مدلس عن الضعفاء. ولم يسمع من مجاهد ولا من ابن عباس. لكنه يروي عن عطاء. فإن كان يقصد عطاء بن أبي رباح، فالتفسير صحيح متصل الإسناد. وإن قصد عطاء بن أبي

مسلم الخرساني (كما في تفسير البقرة وآل عمران وغيرها) يكون منقطعاً بين عطاء (وفيه لين أصلاً) وابن عباس، عدا أن رواية ابن جريج عن عطاء هي صحيفة عن ابن عطاء (متروك).

قال الذهبي: (وهي تحتاج إلى دقة في البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع)^(١).

٦- طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي (حسن الحديث) مرسلًا عن ابن عباس. لم يلق أحداً من الصحابة، ولا تعرف الواسطة بينه وبين ابن عباس.

قال الذهبي: هي تحتاج إلى دقة في البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع^(٢).

٧- طريق عطية العوفي عن ابن عباس. وعطية بن سعيد بن جنادة الكوفي هذا: شيعي ضعيف مدلس، قال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج به ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب.

قال الذهبي: وهي غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذي^(٣).

٨- طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخرساني، وهو كذاب رديء المذهب. يروي عن مجاهد والضحاك وغيرهما.

٩- طريق محمد بن السائب الكلبي وهو شيعي كافر، قد اعترف بأنه يكذب، وبأنه من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي. وقد نقل الدارمي في كتاب إجماع أهل العلم على ترك هذا الإسناد^(١).

(١) التفسير والمفسرون، الذهبي: ٢٦/١

(٢) المرجع السابق: ٢٦/١

(٣) المرجع السابق: ٢٦/١

١٠- طريق شبل بن عباد المكي (ثقة قدرى) عن عبد الله بن أبي نجيح (ثقة مدلس، قدرى معتزلى داعية) عن مجاهد عن ابن عباس. قال يحى القطان: لم يسمع التفسير كله من مجاهد، بل كله عن القاسم بن أبي بزة (ثقة).

١١- طريق عطاء بن دينار (ثقة) عن صحيفة كتبها سعيد بن جبى. وعنه ابن لهيعة (ضعيف) وابن جريج (مدلس). وما رواه عن ابن عباس بلا واسطة لا يصح. ولم يسمع عطاء من سعيد بن جبى شيئاً، بل هي صحيفة وجدها فى ديوان عبد الملك فرواها. قال الذهبى (وهذه الأشياء يدخلها التصحيف، ولا سيما فى ذلك العصر، لم يكن حدث فى الخط بعد شكل ولا نقط)^(٢).

١٢- طريق موسى بن عبد الرحمن الثقفى الصنعانى (كذاب) عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وهو تفسير موضوع.

١٣- طريق عثمان بن عطاء (متروك) عن أبيه عطاء الخرسانى (جيد) مرسلأ عن ابن عباس.

١٤- طريق إبراهيم بن الحكم بن أبان العدنى (متروك) عن أبيه (ثقة) عن عكرمة (ثقة) عن ابن عباس.

١٥- طريق إسماعيل بن أبى زياد الشامى (كذاب يضع الحديث).

١٦- طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبى عن ابن عباس، وهو صحيح.

١٧- طريق عطاء بن أبى رباح فى سورة البقرة وآل عمران. وعنه ابن جريج (وقد سبق) وابن أبى نجيح وعمرو بن دينار (ثقة ثبت).

(١) النقض على المرسى: ٦٤٤/٢

(٢) سىر أعلام النبلاء: ٣٣١/٦

١٨- طريق ابن سيرين، ولم يسمع منه لكنه سمع من عكرمة ولم يسمه. قال خالد الحذاء: كل ما قال محمد بن سيرين: بُبِّتُ عن ابن عباس، فإنما أخذه عن عكرمة، لَقِيَهُ أيام المختار. وقال شعبة: إنما سمعها من عكرمة.

ومن الملاحظ أن عامة ما يُروى عن ابن عباس في التفسير ضعيف، كما ترى. وما صح عنه غالبه عن تلامذته المشهورين.

قال الإمام ابن تيمية: وما أكثر ما يُحَرَّفُ قول ابن عباس و يُغلط عليه^(١)!

(١) تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء: ١/ ٤٦٠

المطلب التاسع: التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيته

نُسب إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتاب في التفسير، موسوم ب (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس) جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي، صاحب القاموس المحيط، برواية عن ابن عباس سندها: أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس".

وجاء عن الشيخ عبد الله الأمين الشنقيطي أن هذا التفسير ليس جامع الفيروز آبادي، فقد وجدت مخطوطة له قبل الفيروز آبادي.

وذكر جماعة من أهل العلم أن جميع ما روى عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وهذه السلسلة موصومة بسلسلة الكذب.

فإذن تنوير المقياس موضوع مكذوب لا يجوز أن يُنظر فيه على أنه من تفاسير ابن عباس رضى الله عنهما، وإنما هو ملفق، وفيه بدع، وفيه أقوال مخترعة، وفيه مصائب عظيمة لا يجوز النظر فيه إلا لمن يعرف حاله من أهل العلم. ذلك لأن هذا الكتاب الذي يعرف بتفسير ابن عباس كتاب مختلق موضوع، لا تصح نسبته إلى ابن عباس رضى الله عنهما، ولا يعرف عن ابن عباس أنه ألف كتابا لا في التفسير ولا غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وموسى بن عبد الرحمن هذا - وهو الثقفى الصنعاني - من الكذابين، قال أبو أحمد بن عدي فيه: منكر الحديث، وقال أبو حاتم ابن

حبان: دجال يضع الحديث، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابا في التفسير، جمعه من كلام الكلبي ومقاتل^(١). [مجموع الفتاوى: ١ / ٢٥٩].

وجاء عن السيوطي رحمه الله أن أوهى طريقه - يعني طرق التفسير عن ابن عباس - طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب^(١).

والسدي فيه كلام: لما جاء عن الذهبي في ترجمته: محمد بن مروان السدي الكوفي، وهو السدي الصغير، يروى عن هشام بن عروة والأعمش، تركوه، واتهمه بعضهم بالكذب. وهو صاحب الكلبي^(٢).

أما الكلبي: فهو محمد بن السائب الكلبي، أبو النضر الكوفي المفسر، وهو وضاع مشهور. قال سفيان: قال لي الكلبي: كل ما حدثك عن أبي صالح فهو كذب.

وقال ابن معين: بالعراق كتاب ينبغي أن يذفن: تفسير الكلبي عن أبي صالح^(٣).

نصوص من التفسير المنسوب لابن عباس رضي الله تعالى عنهما

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ ولما لئكته ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ ولرسله ﴿ وَجِبْرِيلَ ﴾ وجبريل ﴿ وَمِيكَالَ ﴾ وليكال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ ٩٨ ﴾ لليهود وأيضاً رسله وجبريل وميكائيل وسائر المؤمنين أعداء لهم ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ ﴾ جبريل بآيات ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ مبینات واضحات بالأمر والنهي ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا ﴾ يححد بالآيات ﴿ إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿ ٩٩ ﴾ الكافرون اليهود ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ يعني الرؤساء من اليهود مع محمد ﴿ تَبَدَّلُوا ﴾

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٤٩٧-٤٩٨

(٢) ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٢

(٣) المرجع السابق: ١ / ٦٤٥

طرحه ونقضه ﴿ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ﴿ كلهم ﴾ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ ﴿ موافق بالصفة والنعته ﴾ ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ ﴿ من الكتاب ﴾ ﴿ نَبَذَ ﴾ ﴿ طرح ﴾ ﴿ فَرِيقٌ
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ﴿ أعطوا الكتاب ﴾ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ ﴿ يعني التوراة ﴾ ﴿ وَرَاءَ
 ظُهُورِهِمْ ﴾ ﴿ خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبعته
 ولم يبينوا ﴾ ﴿ كَانَتْهُمْ ﴾ ﴿ جهلاء ﴾ ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ تركت اليهود كتب الأنبياء كلها
 ﴾ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ عملوا بما كتبت الشياطين ﴾ ﴿ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴾ ﴿ في ذهاب ملك
 سليمان أربعين يوما من السحر والنيرنجات ﴾ ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ ﴾ ﴿ ما كتب سليمان
 السحر والنيرنجات ﴾ ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ ﴿ كتبوا ﴾ ﴿ يُعْلَمُونَ النَّاسَ ﴾ ﴿ يعني
 الشياطين ويقال لليهود ﴾ ﴿ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ ﴿ ولم ينزل على الملكين السحر
 والنيرنجات ويقال يعلمون ما ألهم الملكان أيضاً ﴾ ﴿ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾
 ﴿ ما يصفان يعني الملكين لأحد ﴾ ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ ﴿ أَوَلَا ﴾ ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ﴿ ابتلينا بهذه
 الدعوة تدعو بها لكي لا نشد العذاب على أنفسنا ﴾ ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ﴿ فلا تتعلم ولا تعمل
 به ﴾ ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ ﴿ بغير تعليمهما ﴾ ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ ﴿ ما يأخذ به
 الرجل على المرأة ﴾ ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ ﴾ ﴿ بالسحر والفرقة ﴾ ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ﴿ لأحد ﴾ ﴿ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ﴿ إلا بإرادة الله وعلمه ﴾ ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ ﴿ يعني الشياطين واليهود والسحرة
 بعضهم من بعض ﴾ ﴿ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ﴿ في الآخرة ﴾ ﴿ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة
 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ ﴿ يعني الملكين ويقال لليهود في كتابهم ويقال للشياطين ﴾ ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ ﴿ لمن
 اختار السحر والنيرنجات ﴾ ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ﴿ في الجنة ﴾ ﴿ مِنْ خَلْقٍ ﴾ ﴿ نصيب ﴾ ﴿ وَلَيْسَ مَا
 شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ﴿ ما اختاروا به السحر أنفسهم يعني اليهود ﴾ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ﴿
 ولكن لا يعلمون ويقال وقد كانوا يعلمون في كتابهم ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ ﴿ يعني اليهود ﴾ ﴿ ءَامَنُوا ﴾
 ﴿ بمحمد والقرآن ﴾ ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ ﴿ تابوا من اليهودية والسحر ﴾ ﴿ لَمَنُوبَةٌ ﴾ ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ﴿ لكان

ثوابهم عند الله ﴿ خَيْرٌ ﴾ من السحر واليهودية ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ يصدقون بثواب الله ولكن لا يعلمون ولا يصدقون ويقال قد كانوا يعلمون في كأهم ثم ذكر نهيه للمؤمنين عن لغة اليهود فقال ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بمحمد والقرآن ﴿ لَا تَقُولُوا ﴾ لمحمد ﴿ رَاعِنَا ﴾ سمعك يا نبي الله ﴿ وَقُولُوا أَنْظِرْنَا ﴾ أي أنظر إلينا واسمع منا يا نبي الله وكان بلغتهم راعنا اسمع لا سمعت فمن ذلك نهى الله المؤمنين عن لغة اليهود ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما تؤمرون به وأطيعوا ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ لليهود ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿ مَا يَوَدُّ ﴾ ما يتمنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ مشركي العرب أبو جهل وأصحابه^(١).

وإن كان من قول أوسط فإن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس رغم ما عابه من قصور في نسبته إلى الخبر الترجمان إلا أنه تبقى له قيمته العلمية.

أسباب الوضع على ابن عباس:

ويبدو أن السر في كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يُكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وُضع على غيره، أضف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جده

أسباب الوضع في التفسير عموماً

نشأت ظاهرة الوضع أولاً في الحديث النبوي، ثم ظهرت في تفسير كلام الله تعالى، نتيجة لتوسع الدولة الإسلامية، وظهور الخلافات السياسية والمذهبية في الأمة.

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس - الفيروز آبادي: ١٥

وأسباب الوضع في التفسير.

- ١- التعصب المذهبي الذي ابتليت به الأمة لكثرة فرقها وتعدد مذاهبها.
 - ٢- التقسيم السياسي للدولة الإسلامية، واختلاف الولاء السياسي فيها؛ فبعد أن انقضى عهد الخلافة الراشدة بدأ عهد الملوك والذي تمثل في الخلافة الأموية ثم العباسية، وقد اختلفت ولاءات الناس باختلاف توجهات هاتين الخلافتين، فكان لهذا التقسيم واختلاف التوجهات والولاءات دوراً في ظهور هذه الظاهرة وامتدادها.
 - ٣- مساهمة أصحاب الأغراض والأهواء في بروز هذه الظاهرة.
- وهي ظاهرة قد مثّلت جانباً من علم التفسير فحسب، وليست هي التفسير كله من بدايته إلى نهايته. و قد قيض الله تعالى من عباده من انتصب لذلكم وبين الغث من السمين، والحق من الباطل، والقوي من الضعيف. وذلكم والحمد لله تعالى من حفظه تعالى لكتابه إن في رسمه وإن في معناه وبيانه وتفسيره.

المطلب العاشر: ابن عباس وقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)

ومن حيث قد نزلت آيات كثر في الكتاب المجيد القرآن الحكيم بناء على وقائع قد حدثت وأنزلت هذه الآيات تبعاً لها. فالسؤال يدور حول إمكانية تنزيلها على حوادث أخر تشترك معها في العلة أم تكون مخصوصة بذلك السبب الذي نزلت فيه؟

ومدار الحديث عن مناسبات لهذه القاعدة لتجلي معناها أولاً، ثم التأكيد على أن ما سأذكره هنا مختص بما ورد عن الخبر الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنه ضمن بيان منهجه في تفسير كلام الله تعالى.

ومعنى هذه القاعدة أنه إذا اتفق ما نزل من القرآن مع سبب النزول في العموم، أو اتفق معه في الخصوص، فإننا نحمل العام على عمومه، والخاص على خصوصه.

أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت الآية بصيغة العموم فاختلف الأصوليون: أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته.

ومنه حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه (أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمِّيَّةَ، قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْبَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ،

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١) فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ، حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغِ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدْلَجِ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ^(٢).

ونص الآية عام. ومنه يتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ غير حادثة هلال دون اللجوء إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأي الراجح والأصح، ذلك أنه يتفق مع عموم أحكام الشريعة. علاوة على أنه قد سار عليه عامة الصحابة والعلماء المجتهدين. فاعتمدوا النصوص إلى غير صورة سببها. هذا فضلا عن أنه لا يوجد نص آخر يعارضه.

وعموم أحكام الشريعة إنما يخاطب بها كل مخاطب على مر الدهور وسائر الأزمان. وهو ما يتماشى مع كونها رحمة للعالمين في كل آن، ومنه ينسحب نص القاعدة على كل مجتمع. مالم ينص بدليل أنها محصورة في ذلكم السبب. كما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۖ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۖ إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۚ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝﴾ [الليل: ١٧-٢١].

(١) البخاري: ٤٧٤٧

قال القرطبي: قوله تعالى: وسيجنبها أي يكون بعيداً منها. الأتقى أي المتقي الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر - رضي الله عنه - يزحزح عن دخول النار^(١).

ومنه ما جاء في سبب نزول سورة المسد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ١١٥)، صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يَنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ (٢).

قال الشيخ عبد الوهاب خلاف: (إذا ورد النص الشرعي بصيغة عامة، وجب العمل بعمومه الذي دلت عليه صيغته، ولا اعتبار لخصوص السبب الذي ورد الحكم بناءً عليه، سواء كان السبب سؤالاً أم واقعة حدثت؛ لأن الواجب على الناس اتباعه، هو ما ورد به نص الشارع، وقد ورد نص الشارع بصيغة العموم، فيجب العمل بعمومه، ولا يعتبر خصوصيات السؤال أو الواقعة التي ورد النص بناءً عليها؛ لأن عدول الشارع في نص جوابه أو فتواه عن الخصوصيات إلى التعبير بصيغة العموم، قرينة على عدم اعتباره تلك الخصوصيات)^(٣).

ومنه آية حد السرقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨)، حيث نزلت في قطع يد سارق رداء صفوان بن أمية؛ إذ جاء

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٢٠ / ٨٨

(٢) البخاري: ٤٧٧٠

(٣) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ١٨٩

صفوان بن أمية إلى النبي صلى الله عليه وسلم برجل سرق رداءه من تحت رأسه وهو نائم، فلم ينكر ذلك الرجل، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع، فقال صفوان: يا رسول الله، لم أُرِدْ هذا، ردائي عليه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فهلأ قبل أن تأتيني به)^(١).

ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: يا أيها المؤمنون إذا شارَف أحدكم على الموت، وظهرت علائمه، فينبغي أن يشهد على وصيته: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: يشهد على الوصية شخصان عدلان من المسلمين، أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: إن أنتم ضربتم في الأرض فقاربكم الأجل، ونزل بكم الموت، ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: تُوقفونهما من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، استحلف عديًا وقيمًا بعد العصر عند المنبر، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما.

والآية نزلت في تميم الداري وعدي بن بداء؛ كما روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (خَرَجَ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي سَهْمٍ مَّعَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ، وَعَدِيٌّ بَنِ بَدَاءٍ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بَتْرِكَيْهِ، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مَّخُوصًا مِنْ ذَهَبٍ، فَأَخْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ

(١) رواه ابن ماجه في سننه: ٢٥٩٥

وَجِدَ الْجَامُ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَحَلَفَا
لشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا، وَإِنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ، قَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ (١).

والآية وإن نزلت في تميم الداري وعدي بن بداء، فهي عامة من جهة اللفظ، فحينما
يظهر على أحد علامة الموت، ويريد أن يوصي بشيء، فالشهادة على الوصية أن يشهد
اثنان عادلان من الأقارب، أو آخران من غير المسلمين إذا كنتم في سفر، وظهرت
أمارات الموت.

والسبب سببان: ١- سبب جاء بسبب شخص أو سؤال شخص. فما كان بسبب
أحدهما، فلا تتعلق النصوص بأشخاص أو سؤال؛ ومنه تكون العبرة بعموم اللفظ، لا
بخصوص السبب.

وسبب لحالة أو وصف. ومنه فإنها لا تعمم، بل تبقى على هذه الحالة فقط؛ أي: عامة
في هذه الحالة دون غيرها؛ أي: مخصوصة بهذه الحالة، ويقاس عليها مثل هذه الحالة.

وهكذا قد رأينا كيف كان الإمام الخبر الترجمان لا يقف عند سبب نزل الآية وحده
ليقتصرها عليه وإنما قد راح بها آفاقها ليناسب أن القرآن الكريم قد نزل لكل آن وأن
أحكامه لتطول كل مكان وبالله تعالى التوفيق.

(١) البخاري: ٢٧٨٠

المطلب الحادي عشر: ابن عباس ونزول القرآن

ولعل سؤالاً مقتضاه؛ وما علاقة نزول القرآن بمناهج المفسرين فضلاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؟

ويكفي أنهم كانوا يعرفون علم تفسير القرآن الكريم بأنه علم نزول الآيات وشؤونها وقصصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكّيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها وحلالها وحرامها ووعداها وووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها.

فدل ذلك على مناسبة عظيمة بين نزول القرآن ومناهج التفسير فضلاً عن أن يكون للإمام الخبر الترجمان سبق في ذلك.

ذلكم وأنا حين نتعرض لمسألة النزول القرآني الكريم وبخاصة للآيات التي يكون محلها ذلكم أمر فإنما نحتاج بالضرورة للكلام حولها من يكون سنداً معيناً لبيان نزوله وعدد مراته. وذلك من مثل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

قال الطبري رحمه الله تعالى: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله عز وجل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] قال: تلك الليلة ليلة القدر، أنزل الله هذا القرآن من أم الكتاب في ليلة القدر، ثم أنزله على الأنبياء في الليالي والأيام، وفي غير ليلة القدر^(١).

وللعلماء في نزول القرآن عدة أقوال. والصحيح الأشهر منها هو القول بأنّ للقرآن الكريم نزولين، نزوله جملة، ونزوله مفرّقاً. قال ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: هو الصحيح المعتمد^(٢).

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة الدخان: الآية ٣

(٢) فتح الباري: ج ٩/ ٤

والاعتماد على ما صح وقفه عن الخبر الإمام في هذا الشأن كما جاء عنه رضي الله تعالى عنه من نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا ثم كان جبريل ينزل به شيئاً فشيئاً. كما روى النسائي عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: أنزل القرآن جملةً إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وقرأ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] (١).

وأريد أن أعمق البحث، وأرغب في ذكر نصوص تؤيد المذهب، وتقوي المقصد من كون أنه رضي الله تعالى عنه كان له سبق كريم - كرمه - في مسألة نزول القرآن الكريم، وأن هذه المسألة ليست بمعزل عن مسائل مناهج المفسرين يقدمهم في ذلكم الإمام الخبر الترجمان.

هذا.. ولأهل العلم في ذلك أقوال:

القول الأول: وقال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء: أن المقصود بنزول القرآن نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه.

قال البخاري رحمه الله تعالى من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكَّثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ (٢).

(١) السنن الكبرى للنسائي ج ٦ ص ٤٢١ حديث ١١٣٧٢

(٢) البخاري: ٣٩٠٢

القول الثاني: روي عن الشعبي: أنه ليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا، وجادل فيه المشركون الذين نقل إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا.

الثالث: يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر في كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك منجما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في جميع السنة.

وأميل إلى أن القرآن الكريم له تنزلان. وذلك لقوة رأي الفريق الأول من قوة أدلته. وذلك لأنه لا فارق بين الرأيين الأول والثالث من حيث إنه قد نزل مرتين مع اختلاف في مصدر التنزل وحسب. وقول الرأي الثاني مع ملاحظته إلا أنه لا يعارض الأول والثالث جملة. غاية ما في الأمر أنه لم يشر إلى نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ونزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفردا في ثلاث وعشرين سنة.

ومنه ما رواه الإمام النسائي رحمه الله تعالى عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "نَزَلَ الْقُرْآنُ جَمِيعًا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ فُصِّلَ فَنَزَلَ فِي السَّنِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ﴿٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥]"^(١).

(١) النسائي: السنن الكبرى: ١١٥٠١

وأخرج من عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾ قَالَ: نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنَزِّلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ، قَالُوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٣٢] (١).

وروى عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَكَانَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَكَانَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْدُثَ شَيْئًا نَزَلَ فَكَانَ بَيْنَ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ عَشْرِينَ سَنَةً (٢).

وأخرج عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ فَصَلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوَضَعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ يَرْتَلِيهِ تَرْتِيلًا قَالَ سَفِيَّانُ خَمْسَ آيَاتٍ وَنَحْوَهَا (٣).

وجاء في المستدرِك عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِقَ فِي السَّنِينَ قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ ﴾ [الواقعة: ٧٥]. فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ [الواقعة: ٧٥] قَالَ: «نَزَلَ مُتَفَرِّقًا» هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" (٤).

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَمَاشَةَ الْعَدْلِيُّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى الْوَاسِطِيُّ، ثنا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، ثنا هُشَيْمٌ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً

(١) النسائي: السنن الكبرى: ١١٦٢٥

(٢) فضائل القرآن للنسائي: باب كم بين وبين آخره نزول أول القرآن: ١٤

(٣) فضائل القرآن للنسائي: ٦ باب كم بين وبين آخره نزول أول القرآن: ١٦

(٤) الحاكم في المستدرِك: ٣٧٨١. وقال: على شرط البخاري ومسلم.

وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِّقَ فِي الدَّرِ الْمَثُورِ جَلال الدين السيوطي - ج ٤ - الصفحة ٢٠٥ السَّيْنِ،
 قَالَ: وَكَلَّا هَذِهِ اللَّيَّةَ ﴿٧٦﴾ * فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
 عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦] ^(١).

قال الشيخ فهد الرومي: (فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس وأغلب
 أسانيدھا صحيحة) ^(٢).

وجاء عن الزرقاني بعد أن ذكر احاديث ابن عباس أن هذه أحاديث أربعة من جملة
 أحاديث ذكرت في هذا الباب وكلها صحيحة كما قال السيوطي وهي أحاديث موقوفة
 على ابن عباس غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما
 لا مجال للرأي فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع. ولا ريب
 أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم وابن
 عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بها ^(٣).

حكمة نزول القرآن الكريم منجماً

وإنما جاء نزول القرآن الكريم منجماً؛ ولفوائد ربانية، ومن فرائد رحمانية منها:

تثبيتاً لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
 الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]. وتحدياً
 وإعجازاً. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان:
 ٢٣].

(١) رواه الحاكم في المستدر: ٣٩٥٩ وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٢) دراسات في علوم القرآن الكريم: فهد الرومي: ١٩٤

(٣) مناهل العرفان، الزرقاني: ١ / ٤٥

قال في الدر المنثور: أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قرأ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ مثقلة. قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً، أحدث الله لهم جواباً. ففرقه الله في عشرين سنة^(١).

ومنه تيسير حفظه وفهمه ومسايرته للحوادث والتدرج في التشريع. لما روي عن ابن عباس في نزول القرآن في قوله إنا أنزلناه في ليلة القدر قال: أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ونزله جبريل على محمد - صلى الله عليه وسلم - بجواب كلام العباد وأعمالهم^(٢).

ومنه تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم. ومنه أيضاً التسوية بين نبينا وبين موسى عليه السلام في إنزاله كتابه جملة، والتفضيل لمحمد في إنزاله عليه منجماً ليحفظه.

وأفيد تدرج اللوائح والقرارات الإدارية على الفئات المستهدفة ليعوها ويعملوها.

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٤ / ٢٠٥

(٢) رواه الطبراني والبخاري باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني عمرو بن عبد الغفار وهو ضعيف.

المطلب الثاني عشر: ابن عباس وكفر دون كفر

تصدرت كثير من كتب الباحثين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ما بين ذاهب إلى أنه الكفر الأكبر المخرج من الملة وهؤلاء لهم سندهم. وما بين مرجح أنه (كفر دون كفر) تأسيساً على أن ذلك هو قول الخبر الترجمان وبالتالي ليس مقصوداً به ذلكم الكفر المخرج من الملة. وأولاء لهم سنده أيضاً.

وأريد أن أقدم مقدمات أراها فضلاً في المسألة، وبالتالي يمكن أن تعين على فهمها وضبطها بإذن الله تعالى.

المقدمة الأولى: ذلكم أن أمور المسلم كلها عبادة. وليس مقبولا قول إن ذلك الأمر هنا يمثل عبادة وأن أمراً آخر يمثل عبادة دون عبادة. وبالتالي عند النظر إلى مسألة ما من مسائل الدين الكلية فيه أو الجزئية رغم تحفظي على أن الدين حاوٍ على كليات وأخرى جزئيات. وذلكم أيضاً لأن إسلام الوجه لله تعالى يقتضي أن ينظر إلى كل أمر من أمور الدين، وإلى كل مسألة من مسائله على أنها كلٌّ. وعلى أن العمل بها دين. وبالتالي يكون ذلكم متفقاً مع تقدير الله تعالى وتعظيمه في القلوب ومن ثم تتلقى أوامره ونواهيه من غير منطلق ما نعى الله تعالى فريقاً غووا بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ويوم أن يكون النظر إلى مسائل الدين على أنها من الله تعالى فتقدر لتقدير العبد ربه إذن لقضي الأمر. ولكن لأن هذه المسألة ليست محسومة في أفئدة كثير، ومنه كان ظهور أقوال وتلمس أعذار للتحلل من ربة الديانة ومن مباحكات للتنصل من أحكام الملة.

وكيما يكون الفؤاد قد ألم به ما ألم حتى لا يكون في قلبه كثير من تعظيم الله تعالى كان من سببه تلکم النظرة إلى أوامره تعالى ونواهيه.

المقدمة الثانية: ذلك أن مقصود الديانة في الأساس هو تعبيد الناس لربهم الحق سبحانه. وبالتالي يكون النظر إلى أحكامه أمرا أو نهيا من هذه الزاوية. وعندها لن يجد بار بدينه مسوغا لأن يقول هذا أصل من الدين وذاك الآخر فرع منه.

وثالثة المقدمات: أن شريعة الله تعالى إنما كان مقصدها في الأساس العدل. لأن قوام الكون لا يكون إلا به. والحكم بما أنزل الله تعالى هو العدل المطلق. وما سواه لا يمكننا إفادة أنه عدل مطلق. وتخلله لغير ما عدل يجعلنا مضطرين إلى الخروج من زاوية اللاعدل أو من زاوية العدل النسبي. وذلك من حيث وجد العدل المطلق. وقولنا العدل المطلق لا يكون في الحقيقة إلا إذا كان آتيا من سلطة تعرف نفع العباد فتدلهم عليه، وتعرف كذلك ضرر العباد فتنهاهم عنه. والله تعالى وحده هو الذي يعلم ذلك على الحقيقة. ذلك لأنه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولست أجد خيرا مما قال به أكثم بن صيفي كما قال الحافظ أبو نعيم: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَتْحِ الْحَنْبَلِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ، مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ، قَالَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ دَاوُدَ الْمُتَكَدِّرِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِيُّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَلَغَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ مَخْرَجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدْعُوهُ، وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرُنَا لَمْ تَكُنْ لِتَخِفْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَلَيَأْتِ مَنْ يُبْلِغُهُ عَنِّي، وَيُبْلِغُنِي عَنْهُ، فَانْتَدَبَ رَجُلَانِ، فَأَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: نَحْنُ رُسُلُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ، وَهُوَ يَسْأَلُكَ مَنْ أَنْتَ؟ وَمَا جِئْتَ بِهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا مَنْ أَنَا، فَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَمَّا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ، قَالُوا: ارْزُدْ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلَ، فَرَدَّدَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفِظُوهُ، فَأَتَيْنَا أَكُمْ، فَقَالَ: أَبِي أَنْ يَرْفَعَ نَسَبَهُ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ نَسَبِهِ فَوَجَدْنَاهُ زَاكِي النِّسَبِ، وَاسِطًا فِي مُضَرٍّ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ حَفِظْنَاهُنَّ، فَلَمَّا سَمِعْنَهُنَّ أَكُمْ قَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلَأِيمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤُسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَأَوْصَى حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَبْلَى عَلَيْهِمَا أَصْلٌ، وَلَا يَهْتَصِرُ عَلَيْهِمَا فَرْعٌ، وَإِيَّاكُمْ وَنِكَاحَ الْحَمَقَاءِ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهَا قَدَرٌ، وَإِيَّاكُمْ وَأَعْيَانَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ فِيهَا غِذَاءَ الصَّغِيرِ، وَجَبَرَ الْكَبِيرِ، وَفِكَكَ الْأَسِيرِ، وَمَهَرَ الْكَرِيمَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سُوءَ حَمَلِ الْغَنَى يُورِثُ مَرَحًا، وَإِنَّ سُوءَ حَمَلِ الْفَقْرِ يَضَعُ الشَّرْفَ، وَإِنَّ الْعُدْمَ عُدْمَ الْعَقْلِ لَا عُدْمَ الْمَالِ، وَإِنَّ الْوَحْشَةَ فِي ذَهَابِ الْأَعْلَامِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ لَحْيَيْهِ، يَا قَوْمُ لَا تَكُونُوا كَالْوَالِهِ، وَلَا تَوَاكُلُوا الرَّفْدَ؛ فَإِنَّ تَوَاكُلَ الرَّفْدِ عِلْمٌ لِلْخِذْلَانِ، وَدَاعِيَةٌ لِلْجِرْمَانِ، وَمَنْ سَأَلَ فَوْقَ الْقَدْرِ اسْتَحَقَّ الْمَنْعَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثِيرَ التُّصْنَعِ يَهْبِطُ عَلَى كَثِيرِ الظَّنَّةِ، وَأَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَتْرُكْ لِي صَدِيقًا^(١).

والشاهد قوله (أَيُّ قَوْمٍ، أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلَأِيمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤُسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا)! ذلكم الأثر العجيب والتناول الفريد للقرآن الكريم! وعن لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم بعد. من أمثال صناديد كأكم. لكنه هذا هو أثر القرآن الكريم كما ينبغي له أن يكون. فما بالنا نحن إذن ننظر ، وما بالنا إذن نبحت عن علل؛ لنخرج بها النص عن إلفه، ولنوصد الباب عن نوره؟ !

(١) كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم: ٩٩٣

ذلك أن أكثم قد حصر غاية القرآن بقول سديد. وذلك أنه قد أصاب بلسان رشيد، لما أن قال (إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملأئها)!

وذلكم أنه أيضاً قد أخذ القرآن المجيد بلبه حتى وكأني به قد أناخ الراحلة خضعانا لقول الله تعالى ربنا الرحمن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وإذ كان أولى أن تكون هذه النظرة الكلية لأحكام الله تعالى، وقد كان الابتلاء والاختبار الرباني الكريم، أن تتصدر للناس هكذا دروس وعبر! لا أن يذهب أحد مذهبا لتقعيد قلل من شأن نظرة واجبة إلى أوامر الله تعالى أحكامه وشرائعه، ولا لأن يسلك آخر مسلكا يكون النظر من خلاله إلى أحكام الملة بذلكم الذي أصاب الناس من تهاون، واعتماد على غفرانه تعالى الذنوب، وإن بلغت عنان السماء بغير نظر - حق النظر - إلى قول الله تعالى ربنا الرحمن ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ذلك وأنه إذا كان الله تعالى في عقد كل مؤمن هو الذي يجب أن يتوجه بالعبادة له وحده دون سواه من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج فإنه تعالى أولى أن يتوجه إليه بعبادة هي من أخص ما يكون دلالة على تعبيد الناس أنفسهم لربهم الحق سبحانه يوم ألا يحكموا إلا بحكمه ويوم ألا ينزلوا إلا على شرعه. خاصة وأن ذلكم متعلق بمقتضى الشهادة لله تعالى أنه لا إله إلا هو مستحق للعبادة على وجهها.

وليس يقال إن اعتقادا بذلك وحده كاف، وإن لم يلتزم الناس، وليس يمكن أن يقبل إيمان، وإن لم يتقيد القوم بشرعية مولاهم الله تعالى. ذلك أن الكفار يمكن أن يكونوا على ذلك. بدليل أن اليهود كما ذكر في سبب نزول آية المائدة كما سوف يأتي، لم ينكروا أن حكم الله تعالى في الزنا هو الرجم. غاية ما في الأمر أنهم أرادوا أن يعطلوه.

وهنا إذن كان وصمهم أنهم الكافرون، وهناك كان نعتهم بأنهم ظالمون، وأنهم أيضاً كانوا بذككم فاسقين!.

ذككم وأن قولاً كهكذا نوعه لمؤد بطريق اللزوم إلى التحلل من ربقة شرع الله تعالى مولانا الله سبحانه، ولم يتبق للإسلام إلا اسمه الذي يدين به القوم. وأراه عجباً!

ذككم وأناي رأيت قوماً عطلوا منهج الله تعالى أن يسود في أرضه تعالى. ولست أدري كيف يعدل عن حكم الله تعالى في أولاء؟ ولست أجد في قرآنه تعالى إلا دالة العدل؛ لتأخذ بأيديهم، وتسلك بهم أيضاً إلى محكمة العدل المطلق، محكمة يحكم فيها بأمره تعالى وحده، ويعدل فيها بحكمه تعالى وحده أيضاً، ليقول التاريخ: أولاء نفر أخلصوا دينهم لله فأنزلوا حكم الله كما يجب أن ينزل رحمة بأولاء أنفسهم وهؤلاء، ثم رحمة بالمنهج، ورحمة تالية لأجيال متعاقبة تأخذ دينها على محامل الجد، لا مهاوي الردى، ومعاول التفلت والطغيان. والله المستعان!

ذلك؛ وإن النظر النفسي حاكم أيضاً. إذ يمكن يسيراً أن يتحلل الناس من الشرع والحكم بجرة قلم في مؤلف، أو بكلمة عريضة من لسان بقولهم مخالفة لواقع حالهم وعظيم إثمهم: ها نحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا حكم إلا لله، وإن سعينا في الأرض فساداً!

ويقولون ذككم قول، وهم مطمئنون إلى أن رحمة الله تعالى واسعة - وهي بلا شك كذلك - . وأن سيف الحق وميزان العدل سيغض طرفاً عنهم، ولطالما أن المسألة هي كفر دون كفر. وبذككم تساهل تجد النفوس أمامه مداخل شتى؛ للتحلل من النصوص أمرها ونهيتها.

هذا؛ ونظر أولي يقول: إن الواقع الذي تنزل الآية عليه حاكم. ذلك أن الآية نزلت فيما قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن العباس حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه،

عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] و ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود كانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويومئذ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد: دية بعضهم نصف دية بعض.

إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا، وفرقا منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم، فدسوا إلى محمد: من يخبر لكم رأيي، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه. فدسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بامرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ففيهم - والله - أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل^(١).

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٢١٣

والشاهد: تنزيل ابن عباس رضي الله تعالى عنه الآية على اليهود هكذا كما أنزلت وصما لهم بالكفر جزاء إعراضهم عن حكم الله تعالى. وتنزيل هذا الحكم عليهم حتى وإن كان اعتقادهم أن حكم الله تعالى هو القصاص إن كان قتلا. وأن حكم الله تعالى هو الرجم إن كانت الواقعة زنا. كما قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثني الحكم بن موسى أبو صالح حدثنا شعيب بن إسحق أخبرنا عبيد الله عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال ما تجدون في التوراة على من زنى قالوا نسود وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما قال فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مره فليرفع يده فرفعها فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما قال عبد الله بن عمر كنت فيمن رجهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه وحدثنا زهير بن حرب حدثنا إسماعيل يعني ابن علية عن أيوب ح وحدثني أبو الطاهر أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني رجال من أهل العلم منهم مالك بن أنس أن نافعا أخبرهم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم في الزنى يهوديين رجلا وامرأة زنيا فأتت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما وساقوا الحديث بنحوه وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا وساق الحديث بنحو حديث عبيد الله عن نافع^(١).

وتنزيل الآية مرة على القصاص ومرة أخرى على الزنا لا يمنع تكرار سبب النزول. كما قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: (وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت

(١) صحيح مسلم: ١٦٩٩ / ٣٥٢

الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم^(١).

والشاهد مرة أخرى: أنه رضي الله تعالى عنه حكم بحكم الله تعالى فيمن حكم بغير ما أنزل الله تعالى من زاويتين:

فأما أولاهما: فكون فاعل ذلك كافر وظالم وفاسق. بدليل نص الآية أولاً. وهو مقدم على قول كل أحد. ثم بدليل أنه رضي الله تعالى عنه ساق السبب منزلاً إياه على الآية التي حكمت بكفر من فعل ذلك. إذ لم يرد في لفظ حديث مسلم ما يشي بغير ذلكم.

وأما ثانيهما: أنه لم يرد عنه قصر سبب النزول على من نزلت فيهم الآية الكريمة. وبالتالي فنحن أمام تنزيل آخر لقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). وهذه لها بسط آخر في مواضعها لكنني سأسوق بعضها من خاطري وآخر نقلاً عن أهل الدين والعلم في بيان عمومها لسائر من اتحدت فيهم العلة وهو ما يتسق وعموم الرسالة، وهو أيضاً ما يتتظم وعموم الرسالات، وأنها إنما قد اتحدت في أصولها، وإن ذلكم الاتحاد موجب لإعماله؛ كونه متعلقاً بسلطان الله تعالى في الأرض، ولأنه متعلق بحكمه النافذ في كونه.

فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن البراء بن عازب قال مر على النبي صلى الله عليه وسلم يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيم

(١) تفسير ابن كثير: ج ٢/ ٥٧

على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: اتوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكفار كلها. وفي رواية: حدثنا الأعمش بهذا الإسناد نحوه، إلى قوله: فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فرجم، ولم يذكر ما بعده من نزول الآية (١).

وليس من شرط أن يقال إن الله تعالى له حكم كذا وهو مغاير لما عليه حكمه تعالى في الحقيقة. كيما يقال إنه كذب عليه تعالى، ومن ثم يكون قائل ذلك كافرا. فاستواء الحكم بغير حكمه تعالى مع الكذب عليه تعالى فيما لم ينزل كونهما يشتركان في حيثية الحكم بغير حكمه تعالى مناطا. فكل ذلك كاف بالدلالة على كفر فاعله.

والقول المنسوب للإمام الخبر الترجمان: (كفر دون كفر) نسبة لما رواه الحاكم في عن ابن عباس، قوله في الحكم بغير ما أنزل الله هو: (كفر دون كفر)، فعلى فرض صحته عنه فإنه موقوف عليه رضي الله تعالى عنه، والموقوف على الصحابي لا يؤخذ إلا بشرطين:

أحدهما: ألا يخالف نصاً من القرآن أو السنة.

والآخر: ألا يخالف صحابياً آخر أوثق منه.

والوثوق طول الصحبة؛ لأن الصحابة كلهم عدول.

(١) صحيح مسلم: ١٧٠٠

وقول: (كفر دون كفر)، إن صحت نسبته إليه رضي الله تعالى عنهما قد خالف قول ابن مسعود الذي قال: (ذاك الكفر)، وعرفه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومنه أيضا فلم يقف الناس عند قول ابن عباس وليسوا يقفون على قول ابن مسعود؟! وسبب نزول الآية يزيل الشبهة، فقد نزلت في اليهود حين غيروا حدّ دية القتل المنزلة في التوراة.

وقائل بأن الاستحلال شرط في ذلك ليس صوابا. ذلك لأن الإيمان قول وعمل. وكلاهما يتعاضدان في إسباغ صفة الإيمان على آحاد الناس. وإذا ما انفكت إحدى الخصلتين عنه فقد خرم هذا الإيمان، وإلا فما أسمى المنافقين منافقين؛ وإلا لفوات شرط الاعتقاد. كما لم نكفر اليهود لأنهم عملوا ليس بمقتضى علم الشرع وحكمه، وكما لم نكفر النصارى لأنهم عابوه تعالى بغير علم!

ذلك، وأن العلم بأسباب كفر أهل الكتاب ليس محصوراً في مسألة عدم العمل بمقتضى العلم والعمل دون متابعة شرعه تعالى. وبسط هذا في موضع آخر. وأنبه على أن أسانيد هذا الأثر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في صحتها خلاف. وبعد الحكم بصحة الأثر، يبقى النظر في دلالته، ومناط الحكم فيه.

وإنصافاً للقول فإنه لا يقال في كل واقعة حكم فيها بغير ما أنزل الله إنها كفر أكبر مخرج لصاحبه من الملة. ذلك لأن الأمر في مجموعه مرتبط بحال الحاكم أولاً، وبحال النصوص التي أمامه ليحكم بمقتضاها ثانياً، وبحال الواقع الذي يحكم المجتمع كله. فهذه أمور ثلاثة لا ينفك إحداها عن الأخرى عند النظر إلى هذه المسألة. فالحاكم بها حاكم بشرع مولاه بداية. وهو أصل عام يسير عليه في حكمه. وأمامه نصوص الشرع يدرسها ويقيمها على

حالة أمامه جاءت ليحكم فيها بأمره تعالى ابتداءً. وهو من ثم ينتمي إلى (واقع مجتمعي) يدين في مجموعه لله تعالى بالسلطان.

فإذا ما سها أو غلط وحكم بغير ما أنزل الله تعالى نقول إنه ليس حكماً بغير ما أنزل الله تعالى من هذا النوع الذي يخرج به صاحبه من الملة. وإلا كان هذا إجحافاً تتأباه الديانة، وعسراً لا ترضاه الملة. وما وجد أحد بغيته خطأ وما وقع حكم بغير تجاوز. وإلا لماذا قال صلى الله عليه وسلم: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر^(١).

وذلكم يقال ليس لأن هناك قول (كفر دون كفر). لكنه لأنه من قواعد الدين، وأصول الملة، ومقتضيات الرحمة، والغفران، وسبل التجاوز، مما تشرفت به الديانة، ومما تسامت به الحنيفية الإبراهيمية.

وذكر ابن جرير عن مسروق، وعلقمة: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: هي السحت. قالوا في الحكم؟ قال: ذاك الكفر! ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٤]^(٢).

وذكر ابن كثير رحمه الله عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، قال: من جحد ما أنزل الله، فقد كفر. ومن أقر به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق^(٣).

واختيار الطبري أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

(١) صحيح البخاري: ٧٣٥٢

(٢) تفسير الطبري: ١١٩٦٠

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٢/ ٧٢

وقول ابن حجر إن الآيات وإن كان سببها أهل الكتاب لكن عمومها يتناول غيرهم لكن لما تقرر من قواعد الشريعة أن مرتكب المعصية لا يسمى كافراً ولا يسمى أيضاً ظالماً لأن الظلم قد فسر بالشرك بقيت الصفة الثالثة فمن ثم اقتصر عليها. وقال إسماعيل القاضي في أحكام القرآن بعد أن حكى الخلاف في ذلك ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حكماً يخالف به حكم الله وجعله ديناً يعمل به فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكماً كان أو غيره^(١).

ومعرفة ما في القوانين الوضعية، وما اشتملت عليه من تغيير الشرع، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال أمر لازم كيما يمكن لعالم أن يفتي وكيما يمكن لفقيه أن يفقه.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً باتفاق الفقهاء^(٢).

وقال أيضاً: ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتداً كافراً، يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة^(٣).

وقال ابن كثير: من ترك الشرع المحكم المنزل على محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، ومن فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين^(٤).

وقال الشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله معارضة للرسول وإبطالا لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كله مخرج من الملة)^(٥).

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ١٣ / ١٠٧

(٢) الفتاوى، ابن تيمية: ٣ / ٢٦٧

(٣) الفتاوى، ابن تيمية: ٣٥ / ٣٧٢

(٤) البداية والنهاية ١٣ / ١١٩

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي: ج ٢ / ١٠٤

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أنه تعالى ينكر على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان الذي وضع لهم اليساق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير^(١).

وذهب الشيخ محمد ابن إبراهيم إلى أن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين مثزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين، والحكم بخلافه هو الجور والظلم والضلال والكفر والفسوق، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤٦﴾ [المائدة: ٤٦]^(٢).

تحقيق القول والبيان فيما نسب إلى الإمام الترجمان

قال الشيخ عبد العزيز الطريفي في جواب على سؤال: ما صحة حديث (كفر دون كفر) لابن عباس في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٤٤﴾ (المائدة: ٤٤)؟

(١) تفسير ابن كثير: ج ١/ ١١٦

(٢) رسالة تحكيم القوانين، محمد بن إبراهيم : ٥

هو من الموقوف على ابن عباس، ولا يثبت بهذا اللفظ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في السنن، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة، وابن عبد البر في التمهيد عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، قال: كفر دون كفر.

وهشام بن حجير ضعفه أحمد وضعفه ابن معين جداً، وقال ابن عيينة: "لم نكن نأخذ عن هشام بن حجير ما لا نجده عند غيره"، وقال أبو حاتم: "يكتب حديثه"، وذكره العقيلي في الضعفاء، ووثقه العجلي وابن سعد.

وقد خولف في لفظه؛ فقد رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، وابن جرير، وعبدالرزاق في المصنف من حديث معمر عن ابن طاووس عن أبيه، قال: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: قال: هي به كفر. وهذا هو الصحيح^(١).

نقض طرق رواية (كفردون كفر)

عن ابن عباس في قوله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. قال هي به كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله^(٢).

عن ابن طاووس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله... قال: هي به كفر. قال ابن طاووس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله^(٣).

(١) فتاوى الشيخ عبد العزيز الطريفي على الشبكة العنكبوتية.

(٢) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٦ / ٣٤٨

(٣) تفسير ابن كثير: ٢ / ٦٤

قال الحافظ ابن نصر: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجل عن طاووس عن ابن عباس في قوله (.. فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) قال: كفر لا ينقل عن الملة. والإسناد ضعيف لإبهام الرجل.

قال الحافظ ابن نصر: حدثنا يحيى ابن يحيى ثنا سفيان بن عيينة عن هشام - بن حجر - عن طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: ليس الكفر الذي يذهبون إليه.

وهذا الإسناد رجاله ثقات غير هشام بن حجر المكي. فقد ضعفه الأئمة.

قال علي بن المديني قرأت على يحيى بن سعيد: ثنا بن جريج عن هشام بن حجر حديثا، قال يحيى بن سعيد: خلیق أن أدعه. قلت: أضرب على حديثه؟ قال: نعم. وذكره العقيلي في الضعفاء.

ومع تضعيف هؤلاء الجبال الرواسي لـ هشام بن حجر تعلق البعض بتوثيق بعض الأئمة له، فمن هؤلاء الأئمة ابن حبان، وابن سعد، وابن شاهين والعجلي.

أما ابن سعد فلا يعتمد توثيقه إذا خالف الأئمة لأنه يعتمد على الواقدي ومادته في الطبقات منه في الغالب والواقدي ليس بمعتمد.

وأما ابن حبان والعجلي فمشهوران بالتساهل في توثيق المجاهيل ويؤخذ بتوثيقهم لغير المجاهيل.

روى العقيلي في الضعفاء عن ابن عيينة قال: لم نأخذ منه إلا ما لا نجد عند غيره.

قال ابن جرير الطبري حدثنا المثنى ثنا عبد الله بن صالح قال ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال من جحد ما أنزلت فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

عبد الله بن صالح هو: ابن محمد بن مسلم الجهني المصري كاتب الليث بن سعد وهو ضعيف.

قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد فقال كان أول أمره متماسك ثم فسد بآخره وليس هو بشيء،

قال ابن المديني: لا أروي عنه شيئاً، وقال النسائي: ليس بثقة.

قال عنه الحافظ ابن حجر: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه فيه غفلة. وقال عنه الذهبي: فيه لين.

خاتمة: في بيان ما ثبت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية

لم يثبت عن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية إلا ما رواه الإمام ابن جرير عن ابن طاووس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، قال هي به كفر، قال: ابن طاووس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكُتِبَ ورسله^(١).

ومه يُعلم أن عبارة (وليس كمن كفر بالله وملائكته وكُتِبَ ورسله) هي من قول طاووس. وسبقت الإشارة إلى حكمه.

وسبق القول أيضاً أن الكفر وإن كان كما قال طاووس فلا يعدل عنه إلى نفيه أو قول إنه كفر دون كفر.

وينضاف إلى ذلك أن الله تعالى قد أكد الكفر في هذه الآية وبِالْغِ في وصفه وتغليظه بأسلوب هو من أقوى أساليب اللغة في إفادة المعنى:

(١) تفسير الطبري: ١٢٠٥٥

ومن حيث مجيء الكفر بصيغة المصدر وهو دال على ثبوت الكفر ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

ومن حيث تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى ﴿الْكَافِرُونَ﴾ بما يعني أنه الكفر الأكبر.

ومن حيث مجيء جواب الشرط في صورة مبتدأ وخبر معرفتين (فَأُولَئِكَ... الْكَافِرُونَ) وذلك من علامات انحصار الخبر (الكفر) في المبتدأ (فَأُولَئِكَ) وهو اسم إشارة يعود على (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)، وانحصار الخبر المعرف بأل في المبتدأ فيه مبالغة في حصول كمال معناه في المحكوم عليه (وهو المبتدأ) أي مبالغة في حصول كمال الكفر لأولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله.

ومن حيث مجيء المبتدأ في جملة جواب الشرط في صيغة اسم الإشارة (أولئك) زيادة في الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ...﴾ باستحقاق الكفر.

ومن حيث تقديم المبتدأ على الخبر في جملة جواب الشرط وإن كان هو الأصل في اللغة إلا أنه يفيد في أن كون المبتدأ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ متصفاً بالخبر ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هو المطلوب بيانه، كما أن هذا التقديم يفيد زيادة تخصيص.

ومن حيث مجيء ضمير الفصل (هُمْ) بين المبتدأ والخبر ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وما يفيد من اختصاص المبتدأ بالخبر، أي اختصاص أولئك (الذين لم يحكموا بما أنزل الله) بالكفر.

ومن حيث أن كل كفر ورد في القرآن - سواء ورد بصيغة الاسم أو الفعل أو المصدر - فالمراد به حقيقة الكفر المطلقة أي الكفر الأكبر. إلا ما جاء على اسم (الكفار) في سورة الفتح. فإنه مقصود به المعنى اللغوي وحسب. وذلك كما في قوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا.. وإن الآية لم تعلق الحكم بالجحود أو الاستحلال. وإنما هو معلق بترك الحكم بما أنزل الله فتعليق الحكم يكون بمناطه وليس لأحد العدول عن ذلك.

ومنه فسر بيان القاعدة الأصولية (العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب) على الآيات ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] يعتبر تنزيلا أصوليا باحتراف وذلکم رغم نزولها في يهودا!.

وذلك ومثلما طبق الناس هذه القاعدة الأصولية (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) مثلما طبقوها على آية الظهار. وآية حد السرقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث نزلت في قطع يد سارق رداء صفوان بن أمية؛ إذ جاء صفوان بن أمية إلى النبي صلى الله عليه وسلم برجل سرق رداءه من تحت رأسه وهو نائم، فلم ينكر ذلك الرجل، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع، فقال صفوان: يا رسول الله، لم أرَ هذا، ردائي عليه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فهلاً قبل أن تأتيني به) ^(١).

جاء عن البراء بن عازب، قال: مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟)،

(١) رواه ابن ماجه في سننه: ٢٥٩٥

قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم))، قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخيرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]، يقول: ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها.

وجرياً وراء أصل عام تدور عليه ملة الإسلام أن مجيئها أصلاً إنما كان لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ومنه الحكم بما أنزل الله من جانب ومنه رغبة الخير للناس أجمعين أن يكونوا مسلمين قائمين على حدود الله تعالى. ومنه أيضاً يكون البيان صحيحاً ليدخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً وهم يبين الناس مسلمين لا أنهم يؤمنون بأن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ليس كفراً بواحاً يخرج الناس من الإسلام كما هم قد دخلوا فيه أول ما دخلوا وهم على غير أساس متين ولا برهان صحيح من الدين فنكون إذن قد أوقعنا الناس في فتنين فتنه أولى بعدم صواب خطة إدخالهم في الدين ومن ثم يخرجون منها كذلككم بجرة قلم لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله أو هم لم يدينوا بأن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى كفر بواح!

وقول أراه فصلاً في المسألة: ذلك أن الواقع الذي كان يعيشه الإمام الحبر الترجمان كان واقعا يدين فيه المجتمع كله بدين الله تعالى وشرعه وكان من المعمول به أن الحكم بما أنزل الله تعالى هو الأصل السائد آنذاك. ومنه فقياس الواقع الحاضر أو أي واقع مجتمعي نحيت فيه شريعة الله تعالى ربنا الرحمن ليس قياساً متنزلاً، وعليه فلا يقاس تبر بمدرا!

ثم إنه على فرض القول أنه كفر دون كفر فلربما انسحب على كونه كفراً أكبر، ولكنه ليس من باب الكفر الأكبر الآخر من مثل كونه ذبحاً أو نذراً أو صرف عبادة من هذه العبادات إلى غيره تعالى أو إشراكه سبحانه وتعالى فيها.

هذا وقد مر بنا عدم صحة نسبة قول (كفر دون كفر) على الإمام الحبر الترجمان. ورغم ذلك فإنه على فرض ثبوته فيعد موقوفاً عليه وحسب. وغاية ما فيه أنه مأجور على اجتهاده، وليس لأحد قول كقوله متابعة عليه. ذلك لأنه يصطدم مع ظاهر النص الحكيم فيما أنزل الله تعالى ربنا الرحمن في آيات المائدة محل الذكر والبيان من أنه (الكفر والظلم والفسق).

وهو الكفر، وإن كان كفراً دون كفر اليهود بزعمهم أن عزيزاً ابن الله. والنصارى في زعمهم أن المسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وكذا عبادة الأوثان كما كان حال مشركي مكة.

وعلى أنه، وإذا كان الحكم بمدلول النص شيء، وإلا أن تنزيله على الواقع فقه آخر، ولما كان منضبطاً بمسألتي تحقق الشروط وانتفاء الموانع، وهو ما يعوزه بيان آخر، وإذا ليس هذا من محلنا ههنا.

المطلب الثالث عشر

المكي والمدني عند ابن عباس

إنَّ منْ أشرف علوم القرآن علمَ نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحُكْمُه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يُشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحدبية، ثم ما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيئاً، وما نزل مُفَرِّداً، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حُمِلَ مِنْ مكة إلى المدينة، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة، وما حُمِلَ من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما نزل مرموزاً، ثم ما اختلفوا فيه.

فوائد معرفة المكي من المدني:

من ذلك:

العلم بالتأخر، فيكون ناسخاً أو مخصصاً، على رأي من يرى تأخير المخصص.

قال أبو جعفر النحاس - رحمه الله - (وإنما نذكر ما نزل بمكة والمدينة؛ لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ؛ لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره عُلِمَ أن المدنية نسخت المكية^(١)).

(١) الناسخ والمنسوخ: ٦١١ / ٢

ومنه الوقوف على أحد أبعاد إعجاز القرآن الكريم وتعذر تحريفه، من خلال التأمل والتدبر في خصائص السور المكية والمدنية وضبط تاريخ نزولها.

ومنه معرفة الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ.

ومنه الوقوف على السياسة الحكيمة التي سلكها القرآن في التربية والتي تقوم على التدرج في التشريع.

ومنه الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، إذ إن معرفة مكان نزول الآية يعين على فهم المراد بالآية ومعرفة مدلولاتها، وما يراد منها.

ومنه الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله، ذلك أن أسلوب القرآن المكي في القرآن والمدني منه ليهب دارسه منهجا قويا للسير في طريق دعوته على أرض صلبة مما حفلت آيات القرآن الكريم في هذا.

ومنه أنها تساعدنا على استخراج سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ وذلك بمعرفة أحواله بمكة، ومواقفه في الدعوة فيها، وكذا أحواله في المدينة، وسيرته في الدعوة إلى الله فيها.

ومنه بيان اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم وعنايتهم به، حيث إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني فحسب، بل تتبعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة، وما كان بعد الهجرة.

ومنه معرفة القول الراجح من المرجوح في تفسير آيات القرآن.

ومنه معرفة أسباب النزول، إذ إننا أثناء دراستنا لمكان نزول الآية نقف على الأحوال والملابسات التي احتفت بنزول الآية.

ومنه الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغير والتحريف.

تطبيقات عن ابن عباس

وأريد أن أسوق بعضاً مما جاء عنه رضي الله تعالى عنه بهذا الخصوص إبرازاً لاهتمامه به وأنه من ثم يكون متعلقاً بمنهجه في تفسير كلام الله تعالى.

فقد ورد عن ابن عباس قال: "سألتُ أباي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبعٌ وعشرون سورة، وسائرهما بمكة^(١)"

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عِجَابًا﴾ [يونس: ٢]^(٢).

وأخرج النسائي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح وغيرهم عنه قال: لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى: ويل للمطففين فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(٣).

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس: قال: بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيلاً فلبثت شهراً لا يأتيه منها خبر، فنزلت: ﴿وَالْعَدِيدِ ...﴾^(٤).

وقال السيوطي: قد صحَّ النقل عن ابن عباس استثناء: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: ١٥١]^(٥).

وفي سورة القصص من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قوله: ﴿الْجَاهِلِينَ﴾^(٦) [القصص: ٥٥]؛ فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر

(١) الإتيان في علوم القرآن: ٢٠

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ١١٤

(٣) تفسير الألوسي: عند تفسير سورة المطففين

(٤) الإتيان في علوم القرآن: ج ١ / ١٤

(٥) الإتيان في علوم القرآن: ج ١ / ١٥

الحديد في أصحاب النَّجَاشِي الذين قَدِمُوا وشَهِدُوا وقعة أُحُد، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ [القصص: ٨٥]^(١).

ضوابط القرآن المكي والمدني

ولمعرفة المكي والمدني طريقتان: سماعي، وقياسي:

فالسماعي: ما وصل إلينا نزوله بمكة أو المدينة.

والقياسي: كل سورة فيها: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ فقط، أو ﴿ كَلَّا ﴾ أو أولها حرف تَهْجٍ سوى الزُّهْرَاوِينَ والرَّعْدِ، أو فيها قصة آدم وإبليس، سوى البقرة - فهي مكية. وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حَدٌّ فهي مدنية. وكل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية، سوى العنكبوت في قول. وكل سورة فيها سجدة فهي مكية.

أول ما نزل وآخر ما نزل عند ابن عباس

إن معرفة تاريخ نزول السور والآيات لتفيد في أمور التشريع:

وذلك لكون أن إحداها ناسخة لسابقتها فيؤخذ بالتالي حكماً وذلك عند ظهور التباين في حكم كل منهما فيلجأ إلى هذه الطريقة لتقيد مطلق أو تخصيص لعام كما سبق بيانه في مسألة الناسخ والمنسوخ من هذه الأطروحة.

ومنه معرفة أهمية التدرج في تشريع الله تعالى للعباد، والكشف عن يسره تعالى لعباده بهذه الخصيصة فيما شرع سبحانه. ومنه ذكر اهتمام المسلمين بكتاب ربهم حتى يقال

(١) حاشية القنوي على تفسير البيضاوي: ج ١٤ / ٤٦٥

إنهم لم يتركوا جانباً منه يمكن بحثه ودراسته إلا وقفوا عليه إبانة له وتشرفا به وتفسيرا له ليقى على نعت الله تعالى له مبيناً ميسوراً.

ومنه إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل، كما عرف مكيه ومدنيه وسفريه وحضرته إلى غير ذلك. ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغير والتبدل. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ [يونس: ٦٤].

ومدار هذا الأمر على النقل والتوقيف. ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها.

ومنه بانة أهمية بحث حول أول وآخر ما نزل من الكتاب الحكيم وتعلقه بتأويله ومن ثم وجب قول فيما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه لنبيين مدى ما حفل به علمه بسائر علوم القرآن.

وليس المقصود تحري كل أول ما نزل وذكره كما أنه ليس المراد استقصاء كل آخر ما نزل وبسطه. فذلك أمر يطول، وهو ليس بمُعَيَّنٍ للبحث. إنما غاية المراد ذكر ما أعتبره دليلاً على رسوخ قدم الإمام الخبر الترجمان في كل علم من علوم الكتاب المجيد لنخرج بأيقونة كاملة حول منهجه رضي الله تعالى عنه في تفسير كلام الله تعالى.

ومنه سيكون الكلام مقصوراً على: أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل منه على الإطلاق وهذا هو المقصود المهم. ومن ثم ذكر نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها أي أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقيدة ببعض الأحكام.

وسيكون الاعتماد في ذلك على ما جاء عن الإمام الخبر الترجمان بإذن الله تعالى ربنا الرحمن. تبياناً لمنهجه وإبرازاً لطريقته وإعمالاً لمسلكه واعترافاً بفضله.

ذلك وأن أول الوحي كما هو معروف من تلکم الليلة التي تنزل فيها ملك الوحي جبريل عليه السلام على رسولنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث كان يتعبد ربه سبحانه في غار حراء وما تلى ذلك من قوله تعالى له (اقرأ) إلى نهاية اللقاء الأول حيث كان نزول سورة القلم. وكان ذلك على قول بعضهم يوم السابع عشر من رمضان في غزوة بدر. وذلك تأسيسا على قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤١﴾ [الأنفال: ٤١].

واختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلُّ بما أداه إليه اجتهاده، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم، يمكن القطع به.

وأكثرهم على أن آخر آية نزولا هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا^(١).

والمقصود قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وأخرج النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: "آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾" (٢).

ورأى آخرون أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨١﴾ (١).

(١) صحيح البخاري: ٤٢٧٠

(٢) تفسير النسائي، سورة البقرة، آية (٢٨١)، آية رقم: ٢٨١، حديث رقم (٧٧): ٢٩٠

وعن ابن عباس قال: هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء.

هذا ويمكن حمل ذلك على أنه آخر ما نزل بخصوص حكم قتل المؤمن عمدا لا آخر ما نزل مطلقا.

وجاء أن آخر ما نزل هو سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (٢).

ويمكن حمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعرا بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

ويؤيده ما روي من أنه قال حين نزلت: "نعت إلي نفسي" وكذلك فهم بعض كبار الصحابة.

كما ورد أن عمر رضي الله عنه بكى حين سمعها وقال: الكمال دليل الزوال ويحتمل أيضاً أنها آخر ما نزل من السور فقط ويدل عليه رواية ابن عباس: آخر سورة نزلت من القرآن جميعا.

قالوا: لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن؟ وهي قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. مع أنها صريحة في أنها إكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة.

والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن وإتمام جميع الفرائض والأحكام.

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم عن ابن عباس

والجواب قول ابن جرير في تفسير الآية المذكورة: الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون^(١).

وجاء عن ابن جرير رحمه الله تعالى من طريق معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قال: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت براءة، فنفى المشركين عن البيت، وحجّ المسلمون لا يشاركونهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكأنّ ذلك من تمام النعمة ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٢).

وغاية القول إن هذه الأقوال رغم جودتها - كونها عن الإمام الحبر الترجمان - إلا أنه يبقى القول إنها ليست بسند صحيح إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبالتالي ينظر إليها من ذلكم جانب. إذ يحتمل أنه أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٦٢

(٢) تفسير الطبري: ١١٠٩٢

الخاتمة

صحبنا سيدنا الإمام الحبر الترجمان عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما صحبة أكرمنا فيها بكرم علمه، وأتحفنا منها بإتحافات فقهه، حتى رأيتني قد تبلغت له حبا فوق المحبة. ذلكم لأنه صحابي فنال حق الصحبة، ونلت وجوب محبة الأصحاب لصحبته، وتقدمت في الأمام لابن عباس لعلمه، ولا ينقص لأحدهم مما في الفؤاد لهم حب لا يشوبه إطرء، أو رفع منزلة فوق كونهم جميعاً عدول.

وقد تسامت بنا علومه، وأشرقت لنا الأكوان بنور فيضه، وأبرقت لنا السماء مما خلصت إليه من فقهه. حيث كان منه:

أن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كان قد تمكن من كتاب الله تعالى علما لما أوتيته من قلب عقول، ولسان سؤول، ولكونه قد تفرد به من صحبة النبي الرسول، ولأنه قد تبوأ به من بركة الدعاء من نبي الله تعالى رافع السماء عندما أفرده صلى الله عليه وسلم بدعائه، واختصه صلى الله عليه وسلم بثنائه فقال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) [سبق تخريجه]، ولسبب أنه قد تضلع به من علوم اللغة، وفقه الألفاظ ودلالاتها على اختلافها وتباينها.

وكانت له رضي الله تعالى ملكة الاستدلال على معنى النص القرآني من نص قرآني آخر يبرز معناه، ومن كلامه حوله أدر كنا فحواه.

كما كانت له رضي الله تعالى عنه عناية خاصة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ذكر بعضه إبان الكلام في الأطروحة حتى كان لأحدنا أن يقف مطمئناً على قدمين ثابتين من علم ما علم عن كتاب الله تعالى تأويلاً وتفسيراً مأخوذاً عن الإمام الحبر الترجمان رضي الله تعالى عنه.

كما كانت له وقفاته السديدة الموفقة لما كان لازماً أن يستدل من أصل لغوي أو بيان شعري لما لم تسعفه آيات بينات أو أحاديث في الباب.

وكم رأينا كيف أن إحسان نشأة امرئ لسييل صدق لتقواه. كما أنها طريق خير هداة. ومنه ننشئ أجيالنا على مائدة القرآن ليكون لهم سبب حفظ كما أنه كان للأولين طريق خير وهداية.

ورأينا كيف كانت القدوة الحسنة لها أثرها الإيجابي الفعال في تنشئة جيل مسلم حفظ لهذه الأمة ماضيها التليد حتى أسلمها إلى حاضرها الذي وجب ألا يختلف إلا في قليل عن ذلكم الماضي الجميل تحلة قوله صلى الله عليه وسلم (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَذْرِي: ذَكَرَ ثِنْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا بَعْدَ قَرْنِهِ - ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ، يَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ).^(١)

وأدركنا كيف كانت معالم تفسير كلام الله تعالى للإمام عبد الله ابن عباس واضحة معالمها كذلك مما أفرزت ولا شك منهجاً كان دربه مستقيماً وكان سبيله معبداً مذكلاً لا لبس فيه ولا غموض.

ومنه أفيد سلامة المنهج أولاً قبل وضوحه تالياً ليأثلف الاثنان معاً في إخراج معلّم تفسيري بين لكتاب الله تعالى ربنا الرحمن. وكذا معالم بينات في المنهج كله، وفي الحياة منه بوجه أخص.

وعلمنا كيف كللت معاملة بكثير من القبول لحسن قصد كان قد أوتيته، ولجميل بيان كان قد أعطيه.

ومنه أفيد سلامة القصد وحسن الاتباع سبيين لنيل أرفع الدرجات.

ووقفنا على أنه رضي الله تعالى عنه شخصية فريدة من التاريخ كانت لها بصماتها
الوضيئة في جعل كتاب الله تعالى سهلاً ميسوراً. حتى كان تناوله تدبراً أيسر، وحتى كان
نظره تأويلاً أسهل، والحمد لله تعالى.

وعلمنا كيف أنه رضي الله تعالى عنه كانت شديدة حيطة أخذاً عن أهل الكتاب. إذ
لديه ما يغنيه، وإلا كانت الأخرى إسعافاً حال ألا يجد ما عنه قد بحث، وما به يسد به
حاجته، وعلى قدرها، والله دره!

وأدركنا كيف كانت وقفته الحكيمة في مسألة الخوارج حتى أفحم خصماً، وحتى أجم
بالحق معترضاً. فكانت حجته دامغة، وكانت قولته فاصلة، ولما لم يجد عندها خصم إلا
الإذعان، وحتى لما انفض القوم إلا وهم مستسلمون نفرأ منهم قبولاً للحق، ودرءاً
للفتنة في مهدها والله تعالى الحمد والمنة.

ومنه أفيد قوة حجة لدى المجادل، وبيان سلطان من علم ينهض قويا حتى لا يجد
المعارض أمامه سيلاً سوى الإذعان والاستسلام، وذلكم بخلق كريم وجدال حسن كما
قال الله تعالى ربنا الرحمن ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ووقفت عند الكلام حول طرق الرواية عنه، وبينت صحتها من سقيمها ليستقيم
الأخذ عنه لدى الأجيال، وليبين الحق منه عند الخصوم، والله المستعان.

وبانت طريقة تخلص رواته كيف أن قولاً ربما لم يسند إليه حقيقة، أو خبراً مكذوباً عليه
قد تطايرت به الصحف، وتناقلته الأنباء، ولا ثمة من يشير، ولا خبر عمن يصحح
سوى نفر قليل في عداد الباحثين - والله درهم - حتى كانت كثير من المقالات سبيلها
التصديق عنه أنه قالها، والصحابي الكريم منها براء. [البخاري: ٦٦٩٥].

وبانت طريقة تخلص رواته كيف أن قولاً ربما لم يسند إليه حقيقة، أو خبراً مكذوباً عليه قد تطايرت به الصحف، وتناقلته الأنباء، ولا ثمة من يشير، ولا خبر عمن يصحح سوى نفر قليل في عداد الباحثين - والله درهم - حتى كانت كثير من المقالات سبيلها التصديق عنه أنه قالها، والصحابي الكريم منها براء.

ومنه كانت المقولة المشهور (كفر دون كفر) على ما سبق البيان به، والله الهادي.

ذلك أني رأيت وقد سمعت أن قوماً يشار إليهم بالبنان وقد احتجوا بقول (كفر دون كفر) وعلى أنه من قول الإمام الخبر الترجمان!

وتنامى إلى علمنا الشيء الكثير، والعلم الغزير حتى سمح لنا رأي ارتأيناه أن نُقعد عن الإمام الخبر الترجمان ما لم يقعه هو، بل كانت طريقتنا ليست بنائية عما عليه أهل الأصول في التععيد، وإلا فلم يكن هنالك - من قديم - ثمة تععيد.

ومنه كيف يسر الله تعالى لعبيد مسكين كمثلي أن ينحو في مسائل الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونزول القرآن ومكيه ومدنيه وخاصه وعامه ومطلقه ومقيده ومجمله ومبينه وأوله وآخره وسفره وحضره نحواً ليس بخارج بل خادماً لعلوم القرآن المجيد والذكر الحكيم مما أعده منهجاً مقبولاً لإبراز منهج جديد عن الإمام الخبر الترجمان منضافاً إلى ما سبق من بيانه حول معالمة.

وبانت لنا طريقة تناوله رضي الله تعالى عنه لمسائل الناسخ والمنسوخ، وكيف أن غير عالم به لا يجوز له الكلام في الكتاب الحكيم.

وكذا معان قد استقر إليها البحث فيم يخص مسألة نزول القرآن وكيف كان تناولها مهما أهمية الكلام حول أي من علوم القرآن الكريم لما لها من إبراز لأهمية التشريع وتدرجه وكيف كان يتنزل الأمر بناء على الحوادث. ومنه كان سبب تنزله منجماً.

وظفت مع الدراسة شوطاً آخر لأسبر معنى قد استقر في ذهني عن قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). وذلك لما لها من أهمية في علوم القرآن الكريم وعليها مدار كثير من الآيات، ومنه لزم بحثها وتناولها. فضلاً عن إبراز منهج له رضي الله تعالى في هذا الخصوص مما يكسب البحث إتقاناً، ومما يلبسه زي الجدة ولباس التحرير.

وتربع الدرس مرة حول مسألة جديرة بالكلام حولها، ومتصلة بعلم مناهج التفسير والمفسرين من أوسع أبوابه. تلكم المتعلقة بمسائل المطلق والمقيد والعام والخاص والمجمل والمبين وغيره مما عده الناس نسخاً في عرف المتقدمين. ومنه لا يلزم تقديم بحث جديد حول مسألة الناسخ والمنسوخ كما سبق بيانه في عرف المتأخرين.

وتناولت الدراسة دفعاً لدعاوى وأباطيل وجرحاً لسيدنا الإمام الحبر الترجمان. وكلن لزاماً التعرض لمثل ذلكم موقف لدفع الإيهام ولنبين للأجيال براءته من نقيصة ادعوها أو تهمة به رموها. والله تعالى هو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان.

ثم راحت الدراسة إلى حيث موقفه رضي الله تعالى عنه من استدلال بأقوال أهل الكتاب وكيف كان مقلداً إلى حد كبير في ذلك.

وانتقل بنا البحث إلى مسألة الوضع في التفسير عموماً، وعنه رضي الله تعالى عنه خصوصاً، وتمت معالجتها على وجه بان هنالك! ملخصه ضعف في راوٍ، أو تهاون عند لآخر، أو تزلف لدى طرف ثالث.

ثم كان لزاماً الإشارة إلى التفسير المنسوب إليه رضي الله تعالى عنه، والموسوم بـ (المقباس من تفسير ابن عباس)، وبيان أنه ليس من صنعه، وإيضاح أنه ليس من عمله. فقد ألفه قوم آخرون ظهر ضعف الرواية عنهم كما بينت هنالك، وبالله تعالى التوفيق.

وكانت صنعته اللغوية الفريدة آتته يوم ألا تسعفه الآية، وحين ألا يقوي ساعده حديث في تجلية معنى آية من كتاب الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

ومنه كانت مسأله مع نافع ابن الأزرق لذلك بيانا وتوضيحا وإفهاما.

وباعه في القراءات غير خاف. لكنه باد كما البدر ليلة بدره، وفي النصف من شهره!

لكن الإمام الخبر الترجمان ما كان ليجد غضاضة في سؤال غيره عن دليل أو برهان يقوى به بيانه، أو عن نبأ يرقى به سلطانه. ذلك لأنه يدرك حديثاً عن نبي الله تعالى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم نصه كما في حديث أبي داود عن جابر رضي الله تعالى عنه قال (خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب شك موسى على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده)^(١).

والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: (فإنما شفاء العي السؤال).

ومنه أفيد اقتداء به، وبنص حديثه صلى الله عليه وسلم. كما أهديه لكل باحث عن حق، ولكل مرید للهدى.

وأقول: إن هي إلا محاولات لإخراج باكورة تتناول منهج خبر الأمة وترجمان القرآن بشيء تفصيلي ينم عن اشتماله على مباحث علوم القرآن كلها أو جلها، وهو ما يناسب علماً قد تركه لنا ذلكم الخبر - حياته - في رحاب القرآن المجيد كلها.

ومنه يمكننا أن نقول - بحق - إن ذلكم هو منهج ابن عباس مع عدم الإخلال أو المس من جهود سبقت مشكور ذووها، وممدوح فعلهم، وجعله الله تعالى في سجل حسناتهم. فعملهم كان اللبنة الأولى وعملنا لبنة من فوق لبنة أخرى. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) سنن أبي داود: ٣٣٦

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. صحيح البخاري (٢٥٦هـ).
٣. صحيح مسلم (٢٦١هـ).
٤. صحيح ابن حبان (٣٥٤هـ).
٥. سنن أبي داود (٢٧٥هـ).
٦. سنن ابن ماجه (٢٠٩هـ - ٢٧٣هـ).
٧. سنن الترمذي (٢٧٩هـ).
٨. مسند أحمد (٢٤١هـ).
٩. المستدرك (٤٠٥هـ).
١٠. البرهان للزركشي (٧٩٤هـ).
١١. الاتقان للسيوطي (٩١١هـ).
١٢. لباب النقول في أسباب النزول - السيوطي (٩١١هـ).
١٣. مباحث في علوم القرآن مناع قطان (١٤٢٠هـ).
١٤. التفسير والمفسرون (١٣٩٨هـ).
١٥. تفسير الطبري (٣١٠هـ).
١٦. تفسير ابن كثير (٧٧٤هـ).
١٧. تفسير القرطبي (٦٧١هـ).
١٨. تفسير الزمخشري (٥٣٨هـ).
١٩. تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ السيوطي (٩١١هـ).
٢٠. تفسير الألوسي (١٢٧٠هـ).

٢١. تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء المؤلف: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة (٧٢٨هـ).
٢٢. أضواء البيان محمد المختار بن محمد الأمين بن أحمد مزید الجکني الشنقيطي (٧٢٨هـ).
٢٣. البداية والنهاية المتوفى (٧٧٤هـ).
٢٤. مجموع الفتاوى ابن تیمیة (٧٢٨هـ).
٢٥. فتح الباري - ابن حجر (٨٥٢هـ).
٢٦. كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤٣٠هـ).
٢٧. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس - الفيروز آبادي (٨١٧هـ).
٢٨. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ).
٢٩. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي (١١٩٥هـ).
٣٠. الناسخ والمنسوخ - ابن النحاس: (٦٩٠هـ - ٩٢٢هـ).
٣١. لسان العرب لاین منظور (٧١١هـ).
٣٢. سير أعلام النبلاء الذهبي (٧٤٨هـ).
٣٣. كتاب تحرير علوم الحديث: عبدالله الجديع الميлад معاصر.
٣٤. دراسات في علوم القرآن الكريم فهد الرومي معاصر.
٣٥. علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف (١٣٧٥هـ).
٣٦. ميزان الاعتدال للذهبي (٧٤٨هـ).
٣٧. الإرشاد في معرفة علماء الحديث أبو يعلى الخليلي (٤٤٦هـ).
٣٨. الرد على البكري شيخ الإسلام أحمد بن تیمیة (٧٢٨هـ).
٣٩. المحلى ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ).
٤٠. تهذيب التهذيب الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ).
٤١. السيرة النبوية ابن هشام المتوفى سنة (٢١٨هـ).

٤٢. أضواء على مناهج بعض المفسرين من زوايا علوم القرآن لعبد الحميد متولي (٢٠١٧).
٤٣. المصنفى بأكف أهل الرسوخ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ).
٤٤. أَوْجُهُ الْبَيَانُ فِي كَلَامِ الرَّحْمَنِ: عَدْنَانُ الْعَامِدِيُّ معاصر.
٤٥. الجدل حول آية السيف: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة: العلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي معاصر
٤٦. منهج قراءة التراث الإسلامي بين منهج قراءة التراث الإسلامي: بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين: أبو جميل الحسن معاصر.
٤٧. الموافقات الشاطبي (ت ٧٩٠هـ).
٤٨. الناسخ والمنسوخ - ابن حزم (٤٥٦هـ).
٤٩. المعجم الإسلامي: أشرف طه أبو الذهب معاصر.
٥٠. نواسخ القرآن لابن الجوزي (٥٩٧هـ).
٥١. شرح المعاني الطحاوي المتوفى: (٣٢١هـ).
٥٢. مجمع الزوائد الهيثمي المتوفى: (٨٠٧هـ).
٥٣. العظمة أبو الشيخ (٣٦٩هـ).
٥٤. حلية الأولياء أبو نعيم (٤٣٠هـ).
٥٥. محاضرات في النصرانية. محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ).
٥٦. تهذيب الكمال؛ المزي (٧٤٢هـ).
٥٧. المعجم الحديث في علوم الحديث - ساجد الرحمن الصديقي.
٥٨. السلسلة الصحيحة الألباني (١٩٩٩م).
٥٩. نظم الدرر في علم الأثر للإمام السيوطي (٩١١هـ).
٦٠. مناهج المستشرقين البحثية في القرآن الكريم؛ د. حسن عزوزي معاصر.

٦١. إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ).
٦٢. مختصر تاريخ دمشق: ابن عساكر (٥٧١هـ).
٦٣. فضائل القرآن للقاسم بن سلام (٢٢٤هـ).
٦٤. الآداب الشرعية والمنح المرعية المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (٧٦٣هـ).
٦٥. المصنف : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (٢١١هـ).
٦٦. مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مُستدرِك أبي عبد الله الحَاكِم المؤلف: ابن الملتن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (٨٠٤هـ).
٦٧. منهج ابن عباس وأثره في الاتجاهات اللغوية والبلاغية في التفسير: عمر يوسف حمزة.

فهرس المحتويات

٤	شكر وتقدير.....
٦	إقرار.....
٧	ملخص البحث.....
٣	منهج ابن عباس.....
٣	في تفسير القرآن الكريم.....
٤	المقدمة.....
٦	حدود البحث.....
٦	مشكلة البحث.....
٧	أهداف البحث.....
٨	أهمية البحث.....
٩	عملي في هذا البحث.....
١٠	مصادر البحث.....
١١	خطة البحث.....
١١	الدراسات السابقة.....
١٣	منهج البحث.....
١٦	مولده ونشأته.....
١٧	مناقبه وعلمه.....
١٩	دعه بالحق.....

إمارته.....	٢٠
هجرته.....	٢١
ورعه وزهده.....	٢١
من وصاياه.....	٢٢
خلاصة في فضله رضي الله تعالى عنه.....	٢٤
وفاته رضي الله تعالى عنه.....	٢٤
دعاوى وأباطيل حول ابن عباس.....	٢٥
أولاً: وجود ابن عباس:.....	٢٥
ثانياً: جملة الأحاديث التي رواها:.....	٢٦
ومنه يُتَبَيَّنُ أن:.....	٢٧
فرية روايته لأحاديث موضوعة:.....	٢٨
مادة نهج لغة:.....	٢٩
والمنهج اصطلاحاً أي:.....	٢٩
لماذا البحث عن منهج ابن عباس في التفسير؟!.....	٢٩
والجواب ببسر:.....	٣٠
استقراء المنهج.....	٣٢
ابن عباس المجتهد.....	٣٣
معالم منهج الخبر الترجمان في التفسير.....	٣٣
مدخل للمسألة.....	٣٥
معرفته بعادات العرب.....	٤٩

٦١	سؤاله أهل العلم.....
٦٦	أولاً: ابن عباس والخوارج: تفسير القرآن بالقرآن.....
٦٨	ثانياً: نماذج من منهج تأويله للقرآن الحكيم.....
٧٥	تعريف النسخ لغة:.....
٧٥	القسم الأول: نسخ الإزالة:.....
٧٦	القسم الثاني: النسخ بمعنى النقل.....
٧٧	تعريف النسخ اصطلاحاً:.....
٧٧	وحدة:.....
٧٨	أنواع النسخ.....
٧٨	النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم:.....
٧٩	النوع الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم:.....
٨٠	ومنه إطلاقهم النسخ على تبين المبهم:.....
١٠٢	مراتب الرواية عن أهل الكتاب.....
١٠٢	المرتبة الأولى:.....
١٠٢	المرتبة الثانية:.....
١٠٢	المرتبة الثالثة:.....
١١٢	نصوص من التفسير المنسوب لابن عباس رضي الله تعالى عنهما.....
١١٤	أسباب الوضع على ابن عباس:.....
١١٤	أسباب الوضع في التفسير عموماً.....
١٢٠	والسبب سبيان:.....

١٢٢.....	القول الأول:
١٢٥.....	حكمة نزول القرآن الكريم منجماً
١٢٧.....	المقدمة الأولى:
١٢٨.....	المقدمة الثانية:
١٢٨.....	وثالثة المقدمات:
١٣٤.....	فأما أولاهما:
١٣٤.....	وأما ثانيهما:
١٣٥.....	أحدهما:
١٣٥.....	والآخر:
١٣٩.....	تحقيق القول والبيان فيما نسب إلى الإمام الترجمان
١٤٠.....	نقض طرق رواية (كفر دون كفر)
١٤٢.....	خاتمة: في بيان ما ثبت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية
١٤٦.....	وقول أراه فصلاً في المسألة:
١٤٧.....	فوائد معرفة المكي من المدني:
١٤٩.....	تطبيقات عن ابن عباس
١٥٠.....	ضوابط القرآن المكي والمدني
١٥٠.....	فالسماعي:
١٥٠.....	والقياسي:
١٥٠.....	أول ما نزل وآخر ما نزل عند ابن عباس
١٦٠.....	وأقول: